موسوعة المفكرين والادباء العراقيين

الدكتور جواد علي



تأليف: حميد المطبعي

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٧

موسوعة المفكرين والادباء العراقيين

الجزء الاول

الدكتور جواد علي

تأليف

حميد المطبعي

الطبعة الاولى ١٩٨٧ .

هذه الموسوعة . .

منذ ربع قرن انصبّ تفكيري في تأليف هذه الموسوعة ، وانقطعت الفكرة ثم بدأت الآن ، وهذه الموسوعة لها صفة هي غير صفة الموسوعات الصادرة في تراجم الأعلام ، وصفة هذه الموسوعة ، هي أنها تلّم بالأعلام إلماماً متكاملاً ، في النفس ، وفي البنية ، وفي هذه العناصر التي تركب الكاتب أو المفكر تركيباً ، يراعى فيه ، التسلسل المنطقي لولادة الشخصية ، والتطور التاريخي لأفكارها ، وكانت موسوعات هذا العصر ، أو العصور السالفة لاتغطي إلاّ الشكل الخارجي للأعلام ، كتبهم وشهادات ميلادهم أو وفياتهم ، بمعنى أن الكتابة عن الشخصيات الثقافية في تلك الموسوعات لاتخرج عن التراجم التقليدية ، وكأن الكتاب والمفكرين هم شخصيات نمطية ، ولدت وعاشت كأي سياق بشري آخر ، مع أن تاريخ التراث كان يحدثنا باسهاب عن أهمية ونبوغ واستثنائية قوافل الفكر في الحياة العربية ، وهذا التفرد الذي يتميز به المفكر العربي عبر عصوره ، جعلني أن أفرد له في هذه الموسوعة المساحة المنطقية المتوازنة مع دوره في التاريخ ، فأتحرى وقد تحريت عن مكوّنات الكاتب النفسية وصلاته بالآخرين ، ودوافعه الغريزية للكتابة والابداع ، ثم قمت بمجادلة

آرائه وأفكاره ، تبعاً لسياقه التاريخي ، ووضعت هذا الجدل في خدمة هدف الموسوعة ، وهو أن يكون القارىء في صميم المترجم له ، فيصل اليه بلا جسور ، ويتعرف إلى رؤيته أو فلسفته بحيوية حواسه ، وحتى لايبقى بين القارىء وهذه الشخصية المترجم لها ، أية عقدة من عقد الفكر الغامضة .

أنا وجدت الموسوعات القديمة والموسوعات المعاصرة في تراجم الأعلام ، لاتقدم إلا إعلاناً عن الشخصية ، لاتشرح فيه فكراً ولا تفلسف فلسفة ، فهو مجرد إعلان عابر ، أو طيف صامت لا يدور أو ينفذ إلاّ في المسامات المظهرية للشخصية ، فهو إذن إعـلان مجحف بقيمة وعظمة المفكرين والكتاب الذين أسسوا لنا مجتمع القيم ، وبنوا في محيطنا السلّم المثالي لمجتمع عربي ، مفكر ، عاقل ، مدرك ، يدرك ويعقّل مطالبه الحضاريـة ، طبقاً لانجـازات العقل التـركيبي الذي تتصف به فلسفتنا في الحياة .

واخترت ، أن تكون هذه الموسوعة ، شاملة في مقاصدها ، لأن مفكرنا شامل في افكاره ، وشامل في تصوراته وأحلامه وأشواقه ، وأنا لابد من أن أكون شـاملاً مـع الشخصية التي أبتغي تـرجمتها تـرجمة متكاملة ، فأوجه لها نقداً يأخذ في سياقه العام ، الطابع الاثنوغرافي ، وهو الذي يتصل بحياة الشخصية الاجتماعية ، وادخلها في الدراسة

الاثنولوجية ، وهي الدراسة المقارنة الباحثة في علاقة الشخصية مع محيطها البيئي أو الحضاري أو السلوك الجمعي ، وكما هو ثابت ، فأن القارىء العام بحاجة دائماً إلى مدلول منطقي استدلالي لمعرفة أبعاد المفكر العربي ، ومستوى علاقته بالحياة ، وفي مختلف شؤونها العقلية أو الانثروبولوجية ـ التاريخية .

وكنت في كل تراجمي لهؤلاء الأعلام ، متعاطفاً معهم ، إلا في حالات ، أرى فيها الكاتب يشذ عن مقياس احصائي ، أو يقف موقفاً متذبذباً ازاء قضية ما من القضايا التي تشغل ذهن الحقبة الزمنية التي نرتادها ، فأحاول فيها ، أو أتوصل وهذه الشخصية التي ابحث فيها ، إلى قناعة مشتركة من الحسيات العامة ، حتى نجعل هذا القارىء الذي يقرأ هذه الموسوعة ، متداخلاً ، كاشفاً ، لا متفرجاً في سديم ، ومع هذا فقد أرضيت نزاهتي في أعلامنا ، وأديت الزكاة لتاريخهم ، فنحن كلنا ، مدينون لأعلام العراق ، فيما أبدعوا من علم ، وفيما انتجوا من عقل ، وفيما أرادوا أن يكملوا الشوط الطويل الذي ابتدأت به مدرسة بغداد في التاريخ ، وفي بناء التاريخ الانساني .

لم أتبع في هذه الموسوعة ، النهج الابجدي ، أو الانتقائي لأعلام العراق ، وانما نهجت فيها نهج البحث في الشخصيات البارزة في التاريخ المعاصر ، كلما توفرت في هذه الشخصية أو تلك ،

مصادري في دراستها والتبحر في مظانها ، وكنت في هذا النهج ، أبتعد عن النمطية التي اتسمت بها الموسوعات القديمة والتراجم المعاصرة التي خلطت في المفكرين خلطاً ، وباعدت وقرّبت فيما بينهم تحت ثقل السياقة الابجدية ، التقليدية ، الصارمة . .

وأرى انني أول من ابتكر هذا النهج في تاريخ العمل الموسوعي العربي ، وأول من ابتدع النواة العلمية ـ الموضوعية لمؤرخ المستقبل الذي سيجد إن طال بي الصبر في تراجم أعلامنا ، سفراً خالداً ، زاخراً بصور التاريخ والمواقف والأحداث ، يمكنه من ان يدرس فيه ، حياة مجتمع أو حقبة تاريخ من هذا المجتمع ، أو حالته العقلية التي تبلورت عبر جهد ابداعي تركيبي ـ تاريخي .

وآمل أن لا يكفرني مؤرخ المستقبل في شيء فعلته في هذه الموسوعة ، فقد جهدت ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، ثم تنزّه بي الهدف !

حميد المطبعي

١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

الفصل الاول

فجر الموهبة



تعب الآن ، العلامة جواد علي من تكاليف الحياة ، وأخذ في بيته يجرع صبر البقية الباقية من هذه الحياة ، فمرض ينهش جسده ببطء ، وآفة المرض آفة لاتريح ولا يستريح فيها الذي يتجرع صبر الذبالة الجميل ، وكنت احزن على مرضه : جسد يرتعش كقنديل القديسين ، وهذا القلم الذي كان يصب زيته بقوة رأيته الآن يمتص وهنه بخجل ، والقلم يخجل من العلماء حينما يصبح كأجسادهم المرتعشة ، والقلقة دائماً الى الرحيل ، قال : (أنا اذا مت مات تأريخي) وكان يقولها بغير حزن . . لا يادكتور ، ربما الاجساد تفنى بمشيئة ، لكن الذي كتبته يبقى خالداً ، وشأن هذا ليس غريباً في حضارة الأثر ، فكل ابداع في الجهد الانساني خالد بخلود اشخاصه . . لم يجب الدكتور ، ظننته يستهزىء برأيي ، لكن حاشا جواد علي استهزاءً بأحد أو برأي ، المصيبة انه انضاف اليه مرض على امراضه ، انه مرض السمع ، تضاءلت فيه جاذبية الالتقاط ، فراح يداوي العلة بعلة اخرى ، تكاثرت فيه العلل ، والعلماء ، كما اعرفهم ، لا يعيرون لاجسادهم ، اهتماماً ، انهم ينسون عوالمهم المادية الفانية وينصرفون ، دائماً ، الى الحياة الاخرى . . حياة الذوبان في ذرات الروح ويغدون مهجاً تتطاير في افكارهم ، وترى بعضهم

يسقطون موتى فرحين بعذاب الجسد ، على كتاب لم تكمل فصوله الاخيرة ، أو على مسودات دفنوا فيها مشاريع للحلم وللمجهول ولم تنفذ . . تعب هذا الرجل الذي يتوضأ الان على ثمانين عاماً ، سبعين منها فناء وشوق الى عرب ماقبل الاسلام والى عرب الرسالة الاسلامية ، وكانت هذه السبعون ، رحلة رحل فيها الى اليمن والى اطلال حمير وسبأ وقتبان ، بل قل الى هذه الرحلة التي رحل ، كان يفكر اكثر مما كان يسجل ، كان ينقل لنا اجزاء ممتعة من رواية العرب في الحساب والجغرافيا والانساب والاديان ، وكل ماكان يشيدونه في حواضرهم ، ويتعملقون فيه ، في قوانين الارض ، وفي تأدية الرسالات ، بل لماذا لم نقل ان هذا العلامة نقل الينا اكثر مما نقلت الينا مؤسسات فيها فيض الخزائن ، فنقل تأريخنا المخبوء في الرقاق الملغزة ، وتحت خرائب الجزيرة الهائلة ، نقله فأي نقلٍ نقل !

الفأل !

ومنذ سنوات كان العلامة جواد علي يقصّ عليّ حظوظه في الموهبة ، واذكر انني كنت أتساءل في بيته : (هل هو قدر أن يصبح انسان ما كاتباً ؟) وكان همي ان اعرف ، كيف صار جواد علي ميالاً الى الكتابة ، والى كتابة التاريخ بالذات ، فالمواهب تتوزع بمقادير في

النفوس ، وكل نفس ميالة الى موهبتها التي تنبع بلا ارادة منها في أكثر الاحيـان . . كان هـو ، مثلي ، يتسـاءل : (ان الاقـدار تصب في اعماقنا ، رغماً عنا) ، لكن مهلاً ، ان الذين عاشوا كتابته ورافقوا تأريخه كانوا يجيبون ، ان العلامة جواد علي سمع وهو صغير من القابلة العجوز (أم مهدي) : «هذا الو لد يصير كاتباً » وكانت امه تسـأل القـابلة العجوز : « وكيف علمت بـذلك ؟ » قـالت : « من هـذه الأخت » أي الندبة التي عـلى يده اليمنى . . فهـذه علامـة على أن صاحبها سيكون كاتباً . . ثم وهو صغير سمع من وجيه المحلة المرحوم الحاج حاتم العكيلي ، اثناء زيارة والده له في داره على نهر دجلة يقول له : « هذا ابنك يصير كاتباً ! » فعجب والده من كلامه ، وقال له : « وكيف عـرفت ذلك ! » ، قـال : « لا ادري وانما خـطر ذلـك في قلبي » !

توافـــق !

جمعت اوراقي ، أي : كنت اجمع هذه الذكريات واذهب بها الى المتعب في جسده واليقظ في افكاره . . ماذا تقول دكتور في هذه البداية من الموهبة ، قال : « على ما يظهر ان التنبؤات التي جمعتها أنت هي التي اثرت في نفسي فجعلتني اميل الى القراءة والكتابة من حيث

لاأشعر » ، وعندما كنت القي على سمعه بعض هذه التنبؤات ، كان يشرد بذهنه ، ولا ادري الى أين يشرد بذهنه . . وقد حاولت ان التقط في هذا الشرود ، بعضاً من خواطره :

. . . وصرت اشتري من (خرجيتي) الجرائد والروايات ، ولاسيما روايات المرحوم جرجي زيدان ، وكانت مطلوبة إذ ذاك ، مرغوبة ، يقبل الناس على قراءتها ، واخذت اطالع كتب الادب ، وملت الى الصحافة ، وانا في المدرسة الابتدائية ، وجربت حظي بالكتابة فيها ، وصرت ارسل رسائل الى جريدة العراق للمرحوم رزوق غنام فتنشرها .

. . . وكان الدكتور جواد علي في هذا الصبا يزور ادارة جريدة العراق في شارع المتنبي ، وحيث مطبعتها . . وكان مخبرها المحلي (منشي زعرور) ومحاسبها (جبران ملكون) ومحررها توفيق السمعاني . . .

• • •

لكن اول مقالة نشرها الدكتور جواد علي كانت في جريدة (اليقظة) لسلمان الصفواني - كما يفيد التوثيق الصحفي - وهو يروي : اظن ان اول مقالة نشرتها كانت في هذه الجريدة ، وهي بعنوان (عصبة امم شرقية) ﴾ رداً على الدعوات التي كانت تقول بعصبة امم غربية ﴾ ثم يروي الدكتور هذه الحادثة : لما نشرت المقالة

صار رجال الـ (سي آي دي) وهي دائرة التحقيقات الجنائية ، يبحثون عني . . وكنت ذات يوم جالساً عند المرحوم (ابراهيم ابو العكل) وهو بائع جرائد وعكل في نفس الوقت ، وهو من اطيب الناس خلقاً ونفساً ، واذا بمفوض التحقيقات الجنائية يأتي اليه ويسأله ، وأنا جالس . . هل تعرف جواد علي ؟ قال : لا ، وكرر المفوض : يقولون يجلس عندك ، قال ابراهيم : لا اعرفه . . وانتهت القضية . . كنت فتى اكتب الكثير في هذه الجرائد . . ﴿ واثناء دورة توثيقية في الصحافة العراقية وجدت العديد من مقالات الدكتور جواد علي ، منها : (الاجانب في ادارة السكك الحديدية) و (الهنود في ادارة السكك الحديدية) ويذكر اصحاب الصحف القديمة ان الدكتور كان يوقع في أكثر مقالاته بأسماء مستعارة ، منها : ابن خلدون وحسن صادق ﴾ ، ثم انني عرفت انه كان يمضي اوقاته ، عندما كان في الثانوية ، في جريدة (النهضة) لصاحبها الحاج أمين الجرجفجي رئيس حزب النهضة ، وكان يتولى تحريرها مجاناً ، اشباعاً لهوايته الصحفية .

وعندما أُرسل الى المانيا لدراسة التاريخ (تخرج في دار المعلمين العالمية ١٩٣١ ، تخرج في جامعة هارفرد ١٩٣٩ ، واختير لها استاذاً زائراً ١٩٥٧) لم ينس الدكتور جواد علي ، الصحافة ، بل واصل همومه فيها ، يقول : سجلت نفسي مراسلاً لجريدة الزمان والبلاد

لصاحبها روفائيل بطي . . وسجلت نفسي عضواً في جمعية الصحفيين الاجانب في المانيا ومقرها برلين . . وكنت وانا في هامبرك اراسل الجريدتين . . وكتبت الى جريدة الاهرام بمصر اطلب ان اكون مراسلاً لها ، فأجابتني بأن لديها مراسلاً ، هو في الوقت نفسه ، مراسل لجريدة الماتان الفرنسية . . ﴿ ويفيد اصدقاء العلامة جواد علي ، انه كان يحضر في شبابه باستمرار ، مجلس الادباء المقام في بيت روفائيل بطي الواقع في شارع الزهاوي الملاصق لدار الدكتور سامي شوكة (صاحب جريدة البعث القومي في اواسط الاربعينات) وكان يحضر الى هذا المجلس ساطع الحصري والشاعر معروف الرصافي وأمين زكي وآخرون . . . ﴾ . . وعندما عاد الدكتور جواد علي من المانيا ، دخل دورة ضباط الاحتياط الثانية واكملها وتخرج فيها برتبة ملازم ثان ، ثم اخذ مرة أخرى ، يزاول الكتابة في الجرائد !

غادرني شيطان الشعر !

واكثر الذين يكتبون في العلوم ، كانوا في بداياتهم الاولى ، يكتبون شعراً ، بل يجربون حظوظهم في الشعر ، ولعل هذه الصفة ، هي من غرائز الموهوبين الذين جبلوا عليها وجدانياً ، وتظهر مثل هذه الحالات في اكثر سير الادباء والباحثين ، وحظ الدكتور جواد علي في الشعر مثل حظ هؤلاء ، لكن شيطان هذا الشعر كان يخيم فيه بقصيدة واحدة ، وغادره بدون رجعة ، ومن ذكرياته في هذا الشعر : كنت

اشعر بوجود ميل لي الى الشعر فاقبلت على حفظه وصرت اتطارح مع زملائي الطلاب في الشعر ، في باب التقفية بالخصوص ، وكان ذلك تمريناً يسهل على من له غريزة في الشعر من النظم . . ونظمت شعراً ، قصيدة واحدة رثائية بحق احد المجتهدين الذين نفتهم بريطانيا الى الخارج في العشرينات ، وقد القيتها في حفل تأبيني ، فلما وصلت الى هذا البيت منها :

(ان فاخرت مصر بسعد زعيمها
سعد يقاس بآية الجبار)

انهالت عليَّ ، كلمة . . اعد . . اعد . . اعد (مراراً) . . نسيت القصيدة الا هذا البيت لاني اعدته مراراً حسب الطلب ، وقد ذكرني به الدكتور علي الوردي وكان حاضراً يوم القائي هذه القصيدة كما اخبرني . . وكانت هذه القصيدة ، آخر مانظمت ، واخذ حفظي من الشعر ينضب ولم اعد بعد اليه . . ولعل نبوءة (ام مهدي) جعلتني بايحائها اشعر بأني ضعيف في الشعر . . وان شيطاني في الشعر قد تركني ، فملت الى كتابة النثر ، على أني لست مع ذلك من الكتاب ، وانما انا في الواقع احد طلاب التاريخ . . . وبعد هذا ، فهل كانت (ام مهدي) على حق في نبوءة الدكتور جواد علي ، في أن يكون كاتباً في التاريخ . . كبيراً ؟؟



جواد علي قبل ستين سنة

طبعت أول كتاب بالروبية

ونبوءة (ام مهدي) جعلته ان ينتبه الى العلم (وكان قد ولد في مدينة الكاظمية ١٩٠٧) والعلم في الكاظمية سار بالدكتور جواد علي الى البحث عن جذور العلم ، في الدين والتاريخ والاصول والكفاية باللغة .. ويدخل الى كلية الامام الاعظم في الاعظمية ، ويدرس العلوم الكلامية والشرعية ويكتشف حقيقة هذه العلوم : (اكتشفت ان المذاهب الاسلامية ترجع كلها الى مصدر واحد هو الاسلام) وقاده هذا الاكتشاف الى تجريب ما لايجرب من قبل ، فألف كتابه الاول في التاريخ (كان طالباً نبعت فيه الاحاسيس الروحية) ، ووجه كتابه الى الصفوف السادسة الابتدائية ، على قدر ملكاته ومداركه للتاريخ ، لكنه ادرك اهمية التاريخ وادرك معضلة التاريخ ، عندما كتب يقول : (الامة تنمو في تاريخها ، وعلينا ان ننزه هذا التاريخ من التهم ، ومما لحقه من الاساءة) .

وامتع تجربة يمر بها الكتّاب ، هي التي تقع في تأليفهم الاول ، كيف يولد الكتاب الاول على ايديهم .. (قمت بطبع الكتاب على حسابي الخاص .. ثم ان المرحوم محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية فاوضني على ان يدفع كل ماصرفه على الكتاب ، وان يدفع لي حق التأليف .. ودفع لي مبلغ (١٢٠) روبية عن حق التأليف) -

وكانت الروبية الهندية يومئذ هي العملة المستعملة في العراق واصغر عملة فيها هي (البيزة) مصنوعة من النحـاس ـ . . ويجد الطالب جواد علي ، انه بهذا الكتاب قد لقي تشجيعاً على الكتابة والتأليف ، وعلى اثر ذلك : (قدمت نسخة من الكتاب الى وزير الاوقاف أمين عالي باش اعيان ، وكتبت عليه بيتين من الشعر :

الى عالي الجناب ازف سفراً
اتى تأليفه شرخ الشباب
وارجو ان ينال به قبولا
لديك امينا عالي الجناب

فاستدعاني الوزير الى بيته وكان في مقابـل جريـدة الزمـان ، واهداني ساعة يدوية سويسرية من نـوع (اوميكا) . .) وقـع هذا التأثير في نفس الدكتور موقعاً حسناً فاندفع الى جدية التأليف وصار يكثف من نشاطه في كتابة المقالات ونقد الكتب : (ومن الكتب التي انتقدتها كتاب ضحى الاسلام وبقية كتب احمد أمـين . . وكنت في نقدي علمياً مع أني كنت شاباً ، وطبع الشباب حار ، وقد انصفته ، لدرجة انه لم ينزعج من نقدي بل سر به ، مع عثوري على هفوات فيه) !

مذهبه في التاريخ !

عرف العلامة جواد علي في مجامع اللغة العربية ، وبين اوساط المؤرخين العرب ، بأنه لايستكره على مزاج في كتابة التاريخ ، له طريقة في التاريخ ، في جمعه وتأليفه وتبويبه ، وانت تقرأ له مجلداته في التاريخ ، سواء ما كان في (تاريخ العرب قبل الاسلام ـ ١٠ اجزاء) أو في (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ ١٠ اجزاء) أو في غيرهما . . . فانك ستجد هذا المزاج الحاد ، القوي النبرة ، الشديد في علمه وارائه ، هو اذن ، في كل كتبه ، غايته ان لاينصب من نفسه حاكماً في اصدار الاحكام القاطعة ، هو يخشى ما يخشاه ، ان يقع ضحية شراء العواطف ، فينسى علمه ، ويقول : (منهجي يقوم على وصف الاحداث وتحليلها) كما يجدها في بصيرته العلمية ، ويعتمد منهجه هذا على نظرية . . . (والتاريخ عندي : تحليل الحدث واستنباطه . . . ووصف لما وقع ويقع) ، ويجري ذلك في النقد والتمحيص والخروج بنتائج اجتهادية ، تنقيها النفس الثابتة ، اتعرف : (ان الاراء الشخصية تضلل الحقيقة في التدوين) . . . وهو لايستعجل الكتابة في التاريخ ، لان في تاريخنا موارد ونصوصاً ومعارف مازالت تحت الانقاض ، فالعجلة في الاحكام ملهاة عابثة ، في طمس الحقائق الاخرى التي لم تكتشف لحد الان ، ويقول : (ان الحكمة القديمة . . العجلة من الشيطان . . هي التي علمتني على أن أكون

جريئاً في احكامي ، لأنني مازلت طالب علم كلما ظننت اني انتهيت من كتاب أو بحث في التاريخ) . . . وفي هذا الرأي يعلمنا الدكتور جواد علي . . . اهمية التواضع العلمي في التآليف . . وعلى قدر الاستطاعة كما يقول الفقهاء !

مذهبه في المعرفة التاريخية !

ويرد تعبير المعرفة الانسانية التاريخية في اكثر من نص ، في كتب الدكتور جواد علي ، واختلف ، حول هذه المعرفة التأريخية ، مجتهدون في التاريخ ، بل ذهبوا فيها مذاهب شتى ، وقلت له يادكتور هل تحسم هذا الموضوع . . . قال : (لي رأي فيها . . فهي التي تختصر التاريخ) ، ويعني الدكتور بذلك انه يريد أن يحدد المدخل الى مفهوم التاريخ . . وهذا رأيه :

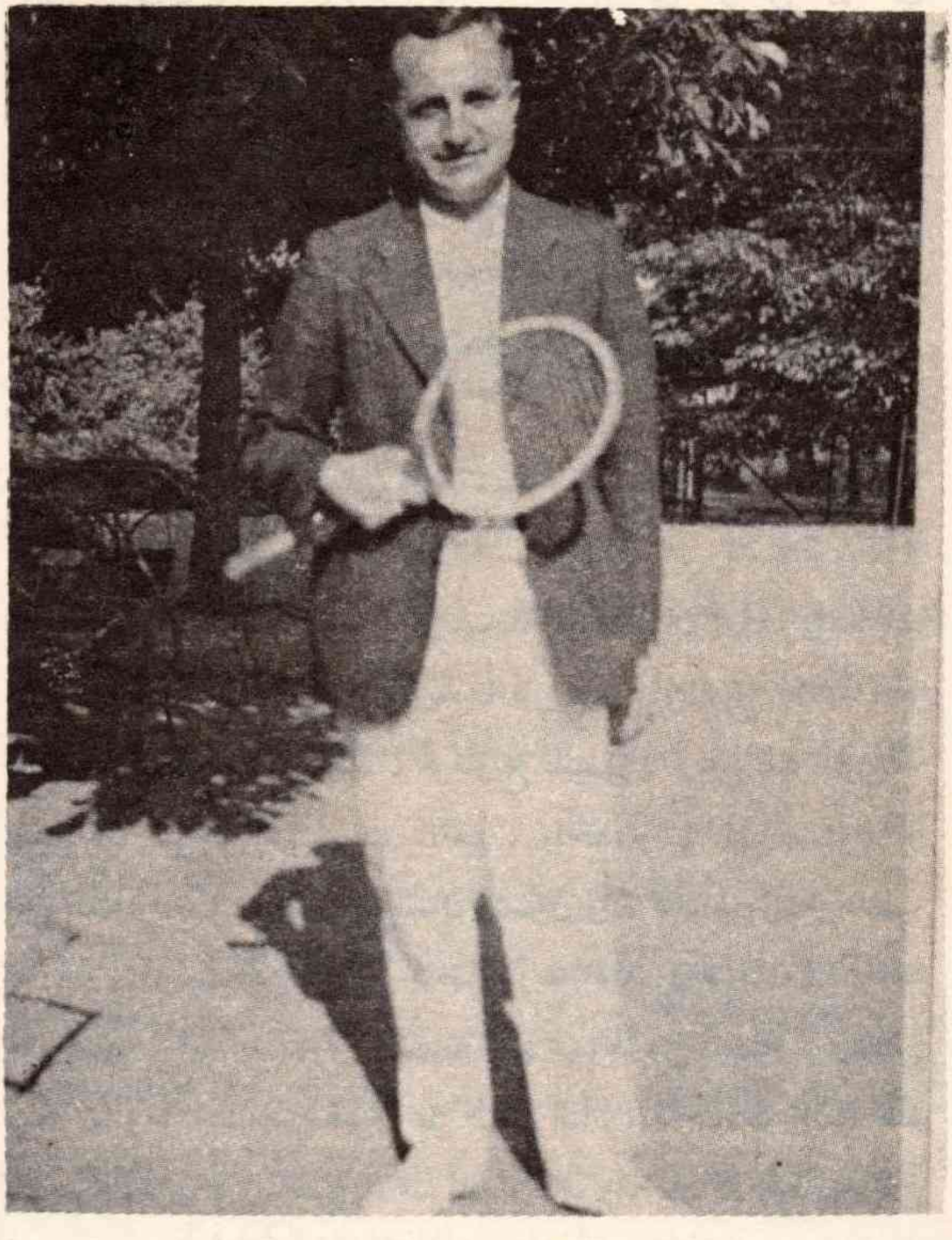
- تتناول المعرفة التأريخية كل ما يمكن ان تتناوله عقلية المؤرخ ، مما له صلة بالتاريخ . . ومن هنا كان التاريخ العام ، أو التاريخ الخاص ، مثل تاريخ الفن ، وتاريخ الموسيقى ، وتاريخ الاديان ، وتاريخ الصلاة ، في ضمن اختصاص التاريخ ، على ان يتناول هذا التاريخ الاشراقات الخارجية للشيء الذي يبحث عن تاريخه ، بمعنى انه لا يبحث عن ماهية الاشياء ، وانما حدوده الكيفية !

ويدخل العلامة جواد علي الى الفلسفة حينما ناقشته عن (حدود

المعرفة التاريخية) . . . يقول ، (بعد النتائج التي توصل اليها في ابحاثه) :

- ليست للمعرفة التاريخية حدود ، مادامت ضمن حدها ، وهو البحث عن الكيفية ، فتاريخ الانسانية ، مثلاً لا يعني البحث عن « فسلجة » وجسم الانسان ، فالبحث عن هذه الناحية يعود الى العلوم ، علوم الطبيعة ، اما البحث في تطور الانسان وفي الادوار التي مر بها ، فهو من اختصاص التاريخ !

وهي على أية حال ليست فلسفة مثالية هذه التي ينطلق منها كاتب تاريخ العرب قبل الاسلام : (لا . . . هي فلسفة واقع) ويذهب : الى أن مدون التاريخ ومسجله هو الانسان ، وهو يقدم لك سجلاً بما يريده من ضروب التاريخ ، تاريخ فرد أو تاريخ جماعة ، أو تاريخ عام لامة ما ، أو للعالم ، أو تاريخ للتطور ، ويبني لك بأشرطته المسجلة ، المراحل التي مرت بالامم ، والحضارات التي نبتت ، أو التي بلت وماتت ، يقرأها الانسان بشوق وان كان من غير صنف المؤرخين ، ويستجلبه بصورة خاصة تاريخ امته ، وما كان لها ، وما كان عليها ، وما ابدعته وجادت به على غيرها من عطاء ، وفيض مبتكر ، أو ما أخذته من غيرها عن طريق التأثر والاحتكاك وصلة امته بالامم الاخرى ، ولا سيما بالامم المجاورة ، وما كان قد وقع بينها من تحاسد ومن اطماع ومن منافسة تقع بين المتنافسين !



في ربيعه الاول

هذا الانسان متفوق على ما حوله ، هذه فلسفة اشراقية يتناولها العلامة جواد علي ، وقلت له اريد تطبيقاً ، مثلاً ، في المقارنة على هذا التفوق . . قال خذ هذا التحليل المنطقي :

- تفوق الانسان على ماحوله ، ظاهرة واضحة ، ولا شك فيها ، وقابليته على التكيّف حقيقة لا جدل فيها ، ودليلي على ذلك : ان الماموث والحيوانات الكبيرة التي عاشت قبل التاريخ قد انقرضت ، ولم تترك لها نسلاً . . اما الانسان فقد كيف نفسه مع التطور وعاش حتى الان . . . وهو سيد هذه الارض . . . ونتيجة هذه المقولة المنطقية :

- انه لا خوف على مستقبل الانسانية من الفناء أو التغير ، انه لم يفقد اهم مافيه ، وهو القدرة على التطور . . اقول على التطور نحو الاحسن ، مهما قيل في هذا الاحسن من اقوال ، تصدر من ضعاف الناس المتشائمين في هذه الحياة !

الحياة في نظرة مؤرخ !

وهو موضوع اخر هذا الذي يختلف حوله المؤرخون : (الحياة) ، كلٌ يدعم رأيه بفلسفة ، يفلسف الحياة من منظور الاختصاص ، وبالطبع فان المتفلسف يدخل في هذا المنظور ، عواطفه المكانية ، بل عواطفه التاريخية . . . وقد رأيت العلامة جواد علي يطيل

التأمل في هذا المنطق . وهو يطرح اجتهاده بحسب سياقه المنهجي :

ـ سؤال قديم ، سأله الانسان وطرحه على نفسه في اول يوم شعر فيه بالحياة ، وهو لا يزال يسأل نفسه عن معنى الحياة . . فلعالم الحياة « البيولوجيا » جواب ، وللطبيب جواب ، وللجراح جواب ، وللفيزيائي جواب . لكنه لا يزال يسأل نفسه ما هي الحياة ، وستظل المشكلة (مشكلة) ، دون حل . . ولكن لا يستطيع احد ان ينكر ، اليوم ، وجود علاقة تجعل من المادة شرطاً للحياة ، ومن الحياة شرطاً للوجدان . . وقديماً سأل الناس عبد الله بن عباس عن الموت ، فقال : انطفاء شعلة الحياة . . اما الحياة في نظري فهي استمرار الناحية الوجدانية الحركية في تعاملها مع الجسد ، فاذا هلك جسدي هلكت روحي ، التي هي القوة الديناميكية بالنسبة لها . . وانتهت الحياة . . وانتهى التاريخ ، لان التاريخ هو الحياة ، وهي القوة الفاعلة ، والتاريخ سجل فعل هذه القوة !

وقد عرض الدكتور جواد علي رأياً غريباً ، اجده يدخل في آراء اولئك المتشائمين حول نظرتهم الى التاريخ ، يقول فيه : (والتاريخ في نظري يبدأ بولادتي وينتهي بموتي ، فلولا وجودي ، ماكان لهذا الوجود وجود . . فبموتي يموت بالنسبة لي كل شيء . . نعم ، اشعر اليوم بوجود كون ، واشعر اني لم اصنعه ، ولم اخلقه ، ولكن هذا الشعور

هـو بسبب وجودي . . . ومتى مت مـات كل شيء) . . . واسـأل الدكتور ، لماذا قام تاريخ الحضارات ، ولماذا نهضت بواكير الفتـوح البشرية في العلم والكتابة والتطور . . ألم يكن الفرد هو صانع هذا الفعل ؟! فالانسان جزء من التطور ، فهو دائم الكينونة والاستمرار .

التطور . . كمدلول في الاصطلاح !

وجرّني رأي الدكتور بأهمية صنع التاريخ ، الى مسألية التطور الذي يمرّ به المجتمع الانسـاني ، وكنت اقول لـه ، انت بحثت عن تـاريخ الامم والممـالك وطـوائف الانسان ، فهـل اكتشفت ان ثمة دورات تاريخية يقاس بموجبها تطور يرقى عصوراً ، ثم سينتهي بها الى الانهيار ، وقلت له . . أنا قرأت ذلك ، في موسوعة (تدهور الحضارة الغربية) لأسوالد اشبنغلر ، ناقشني العلامة جواد علي وقال تريد ان تدخلني في فلسفة التطور الحضاري ، وقلت له : انت آثرت موضوعة التطور ، وانبسط كالقواميس ، قال :

ـ ان كلمة (تطور) أو تقدم ذات مدلول في التاريخ ، يختلف عن مدلوله في العمليات الطبيعية ، فالتقدم في الطبيعة معناه : تحسين الصورة القديمة ، وخلق صور جديدة ، مثل خلق اشكال جديدة في الحيوانات ، أي الاجسام الحية ، ويدخل في ذلك الانسان والحيوان

والنبات . . وأما التقدم بالمفهوم التاريخي ، فقائم على نظرية ان الانسان بوصفه ابن الطبيعة خاضع للقانون الطبيعي ، فهو متطور ، وقد استغرقت عملية تطويره هذه ، مئات الالوف من السنين ، بل ملايين السنين حيث تكون من نواة الحياة الى أن صار انسان هذا اليوم !

- هل يعني الدكتور جواد علي . . . ان الانسان كان بدائياً . . ؟

- لا . هذا هو الخطأ الشائع - فالتطور البشري لايعني ان الانسان كان بدائياً ، عاش في عصور مظلمة ، كما فيما قبل التاريخ ، ثم العصور التاريخية الى هذا اليوم . . . وانما يعني ان الحياة ذاتها هي في تطور ، ان البشرية الحالية في تطور كذلك . وان انسان المستقبل الذي سيكون بعد الف سنة سيكون متطوراً بالنسبة لنا ، وان الذين سيأتون بعد عشرة الاف سنة سيتطورون كذلك : جسمياً وخلقياً ، وتعقّد حياتهم ، لكن هذا التعقيد في الحياة لايصنعه بشر ، انما هو تطور لابد منه !

عناد وطموح . . !

ولكن هذا القلق المسيطر على العالم منذ عقود ، وهذا الخوف من القنبلة الذرية ألا يعد بحسب هذه المناقشة ، شراً من الشرور ،

وهذه المرة ، يدخل العلامة جواد علي الى الفلسفة في التاريخ ، اشتقها من قطبي معادلة الصراع ، وهما : العناد والطموح ، ويوضح فلسفته :

ـ نعم ، انه شر من الشرور ، من حيث انه اداة فناء ودمار ، ولكن القنبلة الذرية من صنع الانسان ، والقادر على الصنعة ، لايعجز عن صنع مضاد لها ، أو اخضاعها لامره لتحويلها الى وجوه الخير ، أو تحسينها وتحويلها الى مافيه الخير ، ثم ان الشر والخير نسبيان ، فما هو شر في يوم ، قد يتحول الى خير ، ولو استعملت القنابل الذرية في حرب ما ، فلا تنطفىء ابداً حياة البشر أو تفنى الانسانية . . . وفي البقية الباقية يكون الخير ، تدفعها غريزة الانسان في قابليته على التطور والتكيف حتى يرتفع الى عوالم اخرى ، قد يكون فيها حياة مثل حياتنا ، أو حياة تتقبل هذا الانسان العنود الطموح . .

وهنا . . . نتيجة الدكتور في تحليله :

ـ عناد وطموح ، وهما من اهم خصال التقدم بالنسبة للانسانية ، ومن لا طموح له ولا عناد ، تأخر عن الركب ، وصار تاريخه : تاريخ فقر وذل ومجاعة ، وقوم في العراء ، ومن عاند ولم يعمل تأخر عن موكب التقدم ، بل تحجر ، وهذا ما نعبر عنه بسياق الحضارة المتطور !

تاريخ وتطور !

وقلت له يا دكتور . . وعقلية الزمان في التاريخ ، قال :

ـ والعراق الذي هاج وماج يوم كتب النصولي عن الامويين قبل خمسين عاماً ، ويوم كتب ماكتبه عبد الرزاق الحصان عن العروبة في الميزان . . . ومصر التي حاكمت الدكتور طه حسين على ما كتبه عن الادب الجاهلي ؛ وحاكمت الشيخ مصطفى عبد الرازق عن رأيه في الخلافة واصول الحكم . . . لا يعبأ اليوم في ربوعهما بما كتب ، ولا يشعر ان فيما حدث مايستوجب المؤاخذة والمحاكمة ، ذلك لان عقلية تلك الايام ، كانت غير عقلية أيامنا هذه ، وستكون عقلية الاجيال القادمة اوسع ولا شك من عقليتنا في هذا اليوم . . .

وكنت اؤيد الدكتور في حكمة هذا التطور !

الفصل الثاني

في ما صنعه المؤرخون القدامى !

في الفصل الاول قلت ان العلامة جواد علي يفني ساعاته في ألم الجسد ، فيمتصه عن قناعة ورضا ، ورأيته في الفصل الثاني ، يذوب في هذا الجسد ، قال (اتركني فانا الآن يوزعونني بين الاطباء) وكان يقول بدهش غريب ، وفي لحظات عدت اليه مع العلامة محمد بهجة الاثري ، نسأل جسداً مملوءاً بالغرائب تتسارع في قدر محتوم ، ورغم هذا ، جعلته ، جعلت ان ادخل في مملكته فالتقط ما يلهيه عن متاعبه الروحية ، فحولته الى الذكريات ، والعلماء يتذكرون ماضيهم ، وأي ماض يتذكرون ، قال (هو جزء من حركة الاشياء) واشياؤه كثيرة في ماضيه ، ثم قال (ماذا تقصد من ماضي جواد علي) قلت له : « صداقتك مع المؤرخين العرب والعالميين » . .

ـ اقدم من تعرفت عليه من المؤرخين الكتاب بمصر ، هو المرحوم احمد أمين وكان قد جاء إلى العراق على رأس وفد الجامعة المصرية في الثلاثينات . . . وقد زار المدن العراقية البارزة ومواضع الاثار ، وحضرت بعض خطبه ومناظراته مع علماء العراق في أمور تاريخية ، مختلف عليها جاءت في سلسلة كتبه . . مثل ضحى الاسلام . . ثم جمعت بيني وبينه الكتابة في مجلة الثقافة (التي اصدرتها لجنة الترجمة والتأليف والنشر بالقاهرة) وهو عضو بارز فيها ، ومشرف على المجلة ، كما كنت اكتب في الوقت نفسه بمجلة الرسالة للمرحوم الزيات .

وطلبت من الدكتور جواد علي ان يصدر حكماً في احمد أمين ، تهيب في بادىء الامر ، لكنني اخذته على عجل فقال : اشتغلنا سوية في المؤتمر الثقافي الاول للجامعة العربية الذي انعقد في (بيت مري) بلبنان سنة ١٩٤٥ ، وكان المرحوم احمد أمين رئيساً للمؤتمر (وهو في نفس الوقت رئيس اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية) ومن خلال اعمال المؤتمر اعجبني فيه . . هدوء طبعه وصبره وتحمله للنقد وحسن تصرفه في الامور !

* وانت ماذا مثلت في هذا المؤتمر . . ؟

ـ اخترت لرئاسة لجنة التاريخ . . (ويتذكر . .) ومن اعضاء هذه اللجنة : الاستاذ محمد فريد ابو حديد ، والمرحوم عبد الحميد العبادي (من مصر) كما حضر المؤتمر الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور سليمان حزين . . وجماعة من مشاهير اهل العلم والادب ، (وجاء في احدى صحف الاربعينات في لبنان ، ان المؤتمر . . كان في الواقع فريداً ونافعاً ، جمع بين الدراسة وبين التعرف فيما بين علماء العربية في التاريخ والجغرافية واللغة) .

مؤرخون عالميون ومستشرقون !

بعد اكثر من شهر عن حديث المؤرخين العرب ، ذهبت بالعلامة جواد علي الى المؤرخين العالميين « الغرباء كما يسميهم والمستشرقين » . فعرفت انه اقام مع المشهورين منهم ، علاقات نقاش

ومكاتبة . . لندعه يتذكر :

ـ اعرف منهم المرحوم (توينبي) . . . وعندما كنت في لندن لاادع فرصة الا والتقى به في (جاتم هوس) مقر عمله . . ولما زار العراق اجتمعت به عدة اجتماعات ، وكتابه عن التاريخ والحضارات في غنى عن التعريف . . وفي الثلاثينات تعرفت على المستعرب (ميتوخ) الاستاذ بجامعة برلين في الثلاثينات ، وهو من مشاهير المستعربين . . ودرست عليه التفسير ، تفسير القرآن الكريم ، وكانت سورة (العاديات) اول مادرسته عليه من التفسير ، باللغتين الالمانية والعربية ، ودرست عليه اللغة العربية الجنوبية ، وفي جملتها لهجات اهل اليمن قبل الاسلام ، اذ هو من المستعربين المشتغلين في هذه الدراسة ، وله كتب فيها منها : (الكتابات السبئية) بالاشتراك مع المستعرب (مورتمن) . . ولما كنت في الولايات المتحدة الامريكية تعرفت على الاستاذ (البرايت) الخبير المعروف في الآثار ، واحد من كان في بعثة « وندل فلبس » الامريكية للبحث عن تاريخ اليمن . . وكان الاعتماد عليه في الناحية الاثرية للمواضع . . ولما زرته في (يفلر) اراني بعض ماحصلت عليه البعثة من آثار . . ومنها طفل راكب على اسد مصنوع من (الشبه) أي (البرونز) واشياء اخرى . وقد قامت هذه البعثة بدراسات اثرية في عمان وفي مأرب وفي (تمنع وهي كحلان) في الوقت الحاضر ، وكانت عاصمة دولة (قتبان) ،

وقد حدثت للبعثة مشاكل مع الحكومة اليمنية الشمالية ، فتركت الحفر وخرجت !

مستعرب ام مستشرق !

وردت في حديث العلامة جواد علي كلمة (مستعرب) بدلاً من (مستشرق) ، وكنت اسأله الفرق بين الاصطلاحين قال : « هذا اجتهادي العلمي » وقلت له : (اين يكمن الاختلاف ؟) وذهب الى ستين عاماً ، يستنبط فيها جواباً ، قال :

- ارى استعمال لفظة (مستعرب) في مكان (مستشرق) .. لان المستشرق هو الذي يبحث عن الشرقيات عامة : العربية والتركية والفارسية والهندية واليابانية والصينية . بينما يذهب الفكر الى العربيات حينما نقول (مستعرب) .. لغة وتاريخاً وتحقيق مخطوطات ومقارنة بين اللهجات ، الى غير ذلك مما يبحث فيه علماء الاستعراب .. (وخلاصة الدكتور جواد علي ؛ ينبغي استبدال مصطلح (مستشرق) بمصطلح (مستعرب) حينما نشير الى الذين يشتغلون بالعربيات من الغربيين) ..

ثم عدت الى العلامة جواد علي بعد شهر الى بيته (وهو متعب مثقل بالمشاريع التي لايستطيع انجازها في الوقت الحاضر) لتكملة ما بدأه من ذكرياته بين المؤرخين العالميين والعرب :

ـ وتعـرفت عـلى المستعـرب الانكليـزي (بيستن) وهـو من اصحاب الاختصاص في العربيات الجنوبية ، وقد تقاعد منذ زمن ، ولكنه مستمر في البحث في العربيات الجنوبية ، ومن اعماله المتأخرة ؛ مساهمته في اخراج (المعجم السبئي) الصغير بالاشتراك مع المرحوم محمود علي القـول استاذ السـاميات في جـامعة اليـرموك بـالاردن ، و (فـون ويسمن) الالمـاني و (ركمنس) البلجيكي ، وقـد صـدر المعجم بمسـاعدة مـالية من جـامعة صنعـاء بالعـربيـة والانكليـزيـة والفرنسية . . وعندما كنت في جامعة (هارفرد) بدعوة منها ، تعرفت على الاستاذ المرحوم (كب) ﴿ . . المعـروف عندنـا بـ « جب » ﴾ وكان مشرفاً يوم ذاك على معهد الدراسات الشرقية بالجامعـة ويلقي المحاضرات على طلاب القسم ، وله جملة كتب اشتهر منها : كتاب (دراسات اسلامية) . . (وقد عرّب) وتعرفت على المرحوم الاستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي ، العالم الهندي ، المتضلع بالعربية ، وقد حقق جملة كتب بالعربية ، وكان عضواً مراسلاً في عـدة مجامـع عربية ، منها المجمع العلمي العراقي ، وتعرفت على المرحوم حسن حسني باشا ، الاستاذ التونسي والعضو المراسـل في المجمع العلمي العراقي ، ومجمع القاهرة ودمشق وكان قد زار العراق ، واجتمعت معه في البندقية بايطاليا في مؤتمـر للعلوم الفلسفية نـظمه (الكـونت جيني) في سنة ١٩٥٥ . . وهناك تعرفت على الدكتور طه حسين ،

وصـرت اجتمع بـه مراراً ، كـما تعـرفت عـلى المستعـرب (فلبي) المشهور . . وغير هؤلاء كثيرون دخلت معهم في مجادلات التاريخ !

بين الكاتب والمؤرخ !

ذهب المفسرون الى أن الكاتب له طبع في التاريخ ، بينما المؤرخ ينقل هذا الطبع فيؤرخه ، ليصبح وثيقة ، قال العلامة جواد علي : (دعني اوضح لك الرأي بين الاثنين) ويعني بالرأي هذا الاختلاف الحاصل بين الكاتب والمؤرخ :

ـ الكاتب ، مؤرخ وان ابعد نفسه عن التاريخ ، أوعد من فئة اخرى من اصحاب الرأي ، وكل انسان هو مؤرخ بطبعه ، وما يقوم به ويفعله هو تاريخ ، بالنسبة له وبالنسبة لغيره ، اما الكاتب الممتهن ، فأنه مؤرخ ، يستخدم مشاعره وثائق ، توحي اليه بالكتابة ، وشعوره هو « وثيقة » للتاريخ ، والفرق بينه وبين المؤرخ : ان الكاتب يعبر عن نفسـه ، اما المؤرخ فيعبـر عن غيره ، ويحكي مـا صنعـه غيـره من تاريخ . . والوثيقة ضرورة من ضرورات التاريخ ، وهي قـد تكون كتابة وقد تكون اداة وقد تكون صورة ، وقد تكون حديثاً مسجلاً ، الى غير ذلك مما يستعين به المؤرخ ، ويستنطقه ليصنع منه تاريخه ، بينما الكاتب يوحي اليه (شيطانـه) أي شيطان كتـابته بتـدوين وثيقة ، فتكون وثيقة من وثائق التاريخ !

لكن بأي شيء يتأثر الاثنان . . . ؟

ـ ان تـأثر الكـاتب ، منبعـه : النفس ، أو مـايسمى : القلب ، واما تأثر المؤرخ فبوثائق غيره . . ومن هنا ؛ ينشأ الفرق بين الكاتب والمؤرخ !

التاريخ والسياسة !

انا اعرف ، ان العلامة جواد علي عمل في الحقل القومي قبل ستين عاماً ، وهو من اوائـل الصحفيين العـراقيين الـذين كتبوا في السياسة ، واعـرف ايضاً ، أنـه اجتمع بهتلر واجـرى معه حـديث التـاريخ وشؤون الاعـراق ، وقلت له : سـتون عامـاً مضت فماذا اعـطتـك « العـلاقـة » بـين التـاريـخ والسيـاسـة ، وكيف اتجهت الايديولوجيات العالمية بالتاريخ . . وقلت له ؛ ويـظهر ان التـاريخ ايديولوجيات ، وقد وافقني ، وفصّل في الامر :

ـ التاريخ سياسة مضت وانقضت ، والمؤرخ يريد اعادة ذلك التاريخ بكلمات ، فهو من ثم (علم الماضين) . . والتاريخ ، من اول المعارف التي تهتم بها الحكومات في كل مكان ، ولاسيما بالقسم السياسي منه ، . . ولما انتهت الحرب العالمية الثانية ، كـانت كتب التاريخ ، وموضوع تدريس التاريخ ، ونوعية ذلك التاريخ ، موضوع دراسة دقيقة ، قام بها الحلفاء ، لاستبدال كتب التـاريخ النـازية ، ووضع بديل عنها يتناسب مع الاتجاه السياسي المطلوب .



الدكتور جواد علي في مدينة همبرك بالمانيا سنة ١٩٣٦ .. وقد استعار هذا الزي من البروفسور (راتجنس) المعروف بمؤلفاته عن اليمن وصداقاته مع الملوك العرب

* فما هي اذن فلسفة مؤرخي المانيا قبل الحرب العالمية الثانية ، وبتعبير اصح . . ايام هتلر . . وانت عشت في المانيا ، انذاك ؟

- كانت فلسفتهم تقوم على اساس : « بلوت اند بودن » أي : « الدم » و « الارض » . . والدم والنسب ، أو القومية الالمانية العرقية ، التي تجمع بين الالمان والارض ، وهي (برأيهم) . . الوطن ، فالمواطن في نظرهم من كان من اصل الماني ومن ارض المانيا التي هي فوق الجميع . . وحملهم افراطهم في الدم ، على اعادة تدوين تاريخ العالم ، والايحاء الى المؤرخين بتدوينه من جديد ، والغاء كتب التاريخ السابقة ، لانها لا تتفق مع نظرية ؛ (الدم والارض) .

* ومن أي اعتبار فلسفي انطلقوا في ذلك ؟

- من : ان التاريخ القديم ، والحضارة البشرية يجب ان تبتدىء من الاغريق ، ثم الرومان والشعوب الآرية ، وجعل حضارات الشرق الادنى من فضلات تلك الحضارة الآرية . . فحضارة وادي الرافدين وحضارة مصر ، هي حضارة مصدرها اليونان والآرية ، لان الجنس السامي : مقلد . . محاك ، ليست له قابليات على الانتاج والابداع !

وانت دكتور . . رأيك في هذا التفسير ؟

- تفسير عاطفي للتاريخ . . وهو تفسير قسري ، كيفي يخالف المنطق المألوف الذي يعطي لكل ذي حق حقه . . وهذا ينطبق على

(الشيوعية) ايضاً ، فللشيوعية فلسفتها الخاصة في التاريخ . . وكتبها الخاصة والعامة تسير على هدي قانونها ، في : الديالكتيكية المادية ، ومراحل التطور في التاريخ ، المقررة المثبتة ، وترى ؛ ان تفاسير التاريخ في غير البلاد الشيوعية هي تفاسير « برجوازية » تغفل اثر فعل الطبقات !

الانانية :

أو النسبي والمطلق في التاريخ !

العلامة جواد علي قوي الرأي ، يصدر عن نفس لاتلين ، واقول ، للتاريخ انه حتى وهو يغرق في مآسي الجسد ، تراه عاصفاً في حقائقه ، شديداً فيها ، انه يعطينا ، الصورة المثلى ، لذلك العالم الذي حول القدرة العقلية ، دائماً الى وعي تاريخي يتجاوز راهنيته ، وهذه (الانا) فيه جعلتني ان ابحث معه ، عن مفاهيم الانانية الفلسفية والخلقية ، ودورها في صنع التاريخ ، وافتتحت الحديث باستفزاز علمي ، قلت له : ما نسبة الانانية في نفسك ؟ ، قال :

ـ لا استطيع انا وزنها بنفسي ، لان ميزان الانسان عن نفسه ، ميزان قد يتأثر بحركة اليد . . واترك امر تقدير النسبة الى غيري ، وان كان ميزانه من الموازين المتأثرة !

ثم دخل الى قاموسه :

ـ الانـانية اوحب النفس ، وتقـديم الـذات عـلى كـل شيء سواها ، لها مدلول اخلاقي ومدلول فلسفي . . اما المدلول الاخلاقي المتعارف عليه بين الناس ، فهو ان الانانية خلق قبيح في الانسان ، لان الاناني لايعرف من دنياه غير ذاته والجشع في اشباع انانيته ، فلا يهمه من امر غيره شيئاً ، ولهذا قبحت الانانية . . وهذا تعريف سائر الناس للأنانية ، من النـاحية الخلقيـة العامـة لامن الناحيـة الخلقية العلمية . .

* وماذا تقول هذه الناحية الخلقية العلمية للأنانية . . ؟

ـ عندها : ان الانانية ، أي فكرة انا . . هي من حيث القوانين الطبيعية شيء طبيعي ، لغرض حفظ الذات ، وقـد خلقت في كل كـائن حي . . فمن حق كـل حي أن يعيش ، ولا حق لاحـد في اغتصاب هذه الانانية منه ، أي حقه في المعيشة وفي التعبير عن رأيه وعن مطالبه ، وتكـون الانانيـة ، بشكل عنيف ، لـدى المخلوقات البدائية ، مثل الشعوب البدائية ، والفطرية ، والحيوانات لـظروفها القاسية التي تعيش فيها .

* وكيف تقاس هذه الانانية في المجتمعات المتطورة . . ؟

ـ الانانية في هذه المجتمعات تتناسب مع درجة الرفاهية وثقافة الناس ، فالمثقف لايميل الى سلب الناس حقوقهم ، لأنه مكتف بما يتمتع به من حقوق ، هو راض عنها ، اما الجشع ، بطبعه فلا يقنع بما

عنده ، بل يريد المزيد ، ولو بالسطو على حقوق الاخرين ، وهذا هو موطن القبح في الانانية . .

* دكتـور . . انت تميل الى ان الانـانيـة هي من الفضـائـل الانسانية . . ؟

- نعم اذا وجهت نحو خدمة المجتمع ، حيث يضع الاناني نفسه في خدمة الناس . . بمعنى انه يتبرع بانتاجه الفائض عليه الى غيره من المحتاجين . . وهذا من الناحية الفلسفية العلمية !

* دكتـور . . انت ذهبت بعيـداً ، لتؤكـد ان الانـاني منتج مبدع . .

- هذا رأي يستقيم في المقارنة ، وكتعبير عن ذلك ، فأننا نجد المجتمعات المتطورة بأيدي الانانية . . أي بأيدي المغـامرين « أهـل العلم والعزم » فغريزة « أنا » تدفع الفرد الى العمل وعلى التغلب على المشاكل ، وعلى الابتكار والابداع . .

* أي الفلاسفة بشرّ بهذه المفاهيم ، وانت أي الكتب قرأت لهم . . ؟

- العديد من كتاب وفلاسفة العالم ، ومنهم من جسم فلسفة الانـانيـة ، الفيلسـوف : « كـاسبـر شميـد » في كتـابـه « الانســان وأنـانيته » . . وهـو يرى ان الانـانية ، هي مصـدر التقدم ، وسـر المجتمعات البشرية ، وهي بذرة الحضارات ، وهي السر الخفي في

تقدم الانسان ، كما فعل فرويد في نظرية « الجنس » عندما قال ، ان الجنس هو العنصر الفعال في الحضارات . . !

موت المؤرخ !

ربما ان العلامة جواد علي يفسر موجودات التاريخ بمثل ما يفسره الفيلسوف شميد لانه يدعم آراءه في فلسفة « الانا » لنلاحظ انه عندما ألقيت إليه مدلولي للتاريخ ، ذهب الى طريقة الاغريق في الجدل ، قال : التاريخ ؟ والتاريخ في نظري :

- يبدأ بولادتي وينتهي بموتي !

فلولا وجودي ، لما كان لهذا الوجود وجود !

فبموتي يموت « بالنسبة لي » كل شيء !

وربما ان الدكتور جواد علي يقصد « بموت كل شيء » ان ينقطع عطاؤه . فهو اذن ، مرحلة على طريق العطاء الانساني ، لكن الم يكن هذا التفسير ، تفسيراً وجودياً ، عندما يذهب الى القول :

- اشعر اليوم بوجود كون ، واشعر انني لم اصنعه ، ولم اخلقه ، ولكن هذا الشعور ، هو بسبب وجودي . . ومتى مت مات كل شيء !

والمؤرخون العرب القدامى في مناهجهم !

تذهب بعض روايات الاوربيين الى أن التاريخ العربي ابتدأ من

عصر الاسلام ، والعلامة جواد علي يخطىء هذا الرأي ، بأن تاريخنا بدأ قبل الميلاد ، وان العرب الجنوبيين كان لهم تقويم يبدأ بسنة « ١٥ » أو « ١٩ » قبل الميلاد ، مؤرخين به عدداً من الكتابات واستمر التوريخ به الى قبيل ظهور الاسلام . ﴿ وهذا مانجده في نص ابرهة ، حاكم اليمن ، وهو مدون على سد مأرب ويرجع الى عام « ٥٤١ » للميلاد ، وأرخ العرب الشماليون بتقويم الاسكندر الذي يبدأ بسنة « ٣١١ » قبل الميلاد ، ثم ارخوا بتقويم « بصرى » سنة « ١٠٥ » للميلاد . . والمعروف ان للمثقفين من اهل مكة كتبا في التاريخ . . ﴾ لكن الكتابة التاريخية يصح ان نقول عنها انها ازدهرت في الاسلام . .

﴿ وانا اختلف مع العلامة جواد علي في أن التاريخ مبدؤه العربية الجنوبية . . فالشواهد الاثارية المكتشفة دللت على ان تسجيل الحوادث كان قد بدأ في العراق قبل تاريخ سد مأرب أو دول قتبان وحمير وحضرموت بقرون عديدة قبل الميلاد . ودللت هذه الشواهد ، في مكتبة اشور بانيبال : ان ثمة بضع مئات من الرقم الطينية والاختام الاسطوانية قد ارخت تاريخ واسماء الملوك واعمالهم وشؤون مقاطعاتهم ، وان هؤلاء الملوك عرب في سلالاتهم ، وعرب في جغرافيتهم ولا اقول انهم انحدروا من الجزيرة كما يحلو لمؤرخي الغرب ان يشوهوا تاريخ العالم ، وانما هؤلاء الذين جرى توريخهم في الالواح نبتوا في الوادي العريق ، بين دجلة والفرات . . أو بينهما ، أو خارجهما

معاً ، نبتوا وكأنهم نبتوا قبل فجر السلالات . . أي انهم ظهروا مع بداية تكوّن القرى الزراعية الاولى في فجر البشرية الأول . . !

نظرة تحليلية !

وقد بحث الدكتور جواد علي في هؤلاء المؤرخين العرب ، فهل اكتشف أخطاءهم :

ـ المؤرخ مثل أي انسان يتأثر بمحيطه والبيئة التي يعيش فيها ، وبالتيارات الفكرية العالمية ثم بمزاجه ونشأته ، وبمقدار تسلط العقل أو العاطفة عليه . . والمؤرخون العرب ، هم في هذا الحكم سواء !

* لكن يادكتور . . أريد نظرة تحليلية في ذلك . . ؟

ـ المؤرخون العرب هم من أهل الدين . . كانوا يعتقدون بكتب سماوية هي : التوراة والانجيل والقرآن . . وقد نظمت هذه الكتب فلسفة الدين والخلق ، على اساس ان الله خلق خلقه ، وان الخلق قد وجدوا على هذه الارض بأمر من الله فهم كلهم عباد الله ، وما عملهم الذي هو فعل التاريخ سوى تطور مستمر بأمر الله وارادته ، المبلغ الى الناس بواسطة رسله ، وانبيائه وهذه فلسفة التاريخ « عند اهل الاديان » وسبب التاريخ فيها مصدره هو الله .

* وهل تعني ان منهج المؤرخين العرب القدامى قد بني وفق هذا المبدأ ؟

ـ نعم . . وبهذه الصيغة . . انهم بنوا تدوين التاريخ وتسجيله على ما ورد في التوراة من رسل وانبياء وملوك ،، وانتقل هذا التفسير للتاريخ الى النصارى ومن النصارى الى المسلمين فبدأوا كما بدأت التوراة بـ « المبدأ » ثم « المبعث » الى ان يصل المؤرخ الى ايامه . . !

* كانموذج . . من هؤلاء المؤرخين . . ؟

ـ الطبري . . وكتابه « تاريخ الرسل والملوك » هو من خيرة الكتب في « التاريخ العام » . . والطبري سار على نظرية ايامه . . في أن التاريخ العام يبدأ من « المبدأ » وهو خلق الكون ، ثم هبوط آدم وحواء على الارض ، واخراجهما من الجنة بسبب الخطيئة ثم الانبياء والرسل وقصة الطوفان . . وهكذا الى تاريخ الامم والدول . . ثم الاسلام ، ويتبدل الاسلوب ، فيأخذ مجرى اسلامياً ، في تدوين التاريخ « على اساس التاريخ الهجري » . . ومبعث الرسول ثم الخلفاء مرتباً على اساس السنين والاعوام . . وهذا هو الاسلوب الاسلامي العام في تدوين التاريخ . .

مع الطبري . . وعليه !

اصبح « الطبري » ظاهرة كلامية في علم التاريخ ، اخذ منه القدماء والمحدثون ، بل اختلف حوله القدماء والمحدثون وقد اعتبر الناس تاريخ الطبري حجة . وقدموه على غيره ، ولا سيما عرضه

للسند ، اذ تقيد به « تقيداً مقدساً » والقى مسؤولية الخبر على ذمة المخبر ، وهو صاحب السند ، وترجم كتابه الى اللغات قبل ان يطبع النص العربي ، اذن هو ظاهرة من ظاهرات تاريخنا . فكيف تتمثل هذه الظاهرة في رأي مؤرخ العصر الحديث كالعلامة جواد علي ، هنا يعطيه حقه ، ويأخذ منه بعض حق مؤاخذة وهو يدخل اليه من هذه الزاوية . .

ـ لابن الاثير وابن خلدون بعض ملاحظات على الطبري ، ولكنها غير قوية . ومما يؤاخذ عليه . . هو أخذه عن بعض مؤرخين ، للناس مطعن بهم مثل : « . . وهو سيف بن عمر . . البرجمي . . التميمي ويقال السعدي ، ويقال الضبعي ويقال الكوفي الاسدي الذي توفي في سنة ١٨٠ هـ » في كتابه « الردة والفتوح » واعتماده عليه في هذا الباب مع علمه بضعفه وبتحيزه الى قبيلته « تميم » ووجود كتب في الردة وفي الفتوح هي اسلم من كتاب سيف . . ومثل اخذه من روايات بعض المؤرخين الضعفاء . . ومثل نقله الاساطير والخرافات « الاسرائيلية » وبعض القصص الخرافي المجانب للعقل ، مع انه من كبار العلماء ، فكان عليه عدم تدوينه ، لكل ذلك في كتبه . .

والنتيجة التي يريد ان يصل اليها العلامة جواد علي هي : ان الذين اخذوا على الطبري أو على ابن الاثير من امور ، قد وقعوا هم انفسهم بها . . ذلك لان الانسان لا يمكن تجريد نفسه من امور زمانه

الراسخة بين الناس . .

* لكن بعض الكتاب قد اخذوا على الطبري أو غيره من المؤرخين ، عدم اهتمامهم بالنواحي الاقتصادية . .

- هذه المؤاخذة غير واردة . . لم تكن صحيحة . . ذلك لأن ادراك الاثر الاقتصادي في صنع التاريخ لم يكن معروفاً في ذلك اليوم ، ايام كان الطبري يكتب تاريخ الدول !

* والطبري وغيره يؤاخذون على انهم اهملوا مبدأ « الرأي العام » في تبديل مجرى التاريخ . . ؟

- واثر الرأي العام لم يكن معروفاً في تلك الايام ايضاً . . فقد كان الاشخاص في نظرهم : هم صناع التاريخ ومدونوه من الوجهة العملية . . وما يؤاخذ الناس عليهم بالنسبة الى منطقهم في هذا غير جائز ، لاننا نؤاخذ قوماً مضوا على افكار لم يكن لها وجود في تلك الايام ، وانما برز اثرها من ايام . . اما الاغراق في الخرافات والاساطير والمنطق المجانب للعقل ، فذلك مما يؤاخذ عليه من دون شك !

وهل هو استنتاج العلامة جواد علي الاخير عندما يلخص الرأي في الطبري :

- اننا في مثل هذه النواحي يجب علينا مقابلة رأي المؤرخين العرب مع رأي غيرهم من المؤرخين المعايشين لهم مثل اليونان واليهود والرومان . . لترى الفرق في الطريقة ، وفي تدوين التاريخ في عالم

ذلك الوقت ، وفي ايام المؤرخ بالذات ، حتى لايظلم ، ويكون الحكم جائراً عليه !

* * *

قال : تعبت ودمه يقلّ الان ، وانبهرت ، فقد أخبرته التقارير الطبية الاخيرة ، بأن عليه ان يسكت ويمسك عن الكلام ، في التاريخ أو في غيره ، ثم يسكت عن التحدث حتى مع نفسه ، فقد آلمه ان ينجرّ الى هذه التقارير ، آلمه ان يبوح نفسه الى صمت العالم والاشياء ، كان يرمقني وأرمقه وأردد في خيالي قول جبران خليل جبران : عندما لاتجد الحياة مغنياً يتغنى بقلبها تلد فيلسوفاً يتكلم بعقلها !

النظرة القسرية :

وقبل هذا التاريخ ، كان العلامة جواد علي يحدثني عن حذر المؤرخ ازاء التاريخ ، قال :

- ان مانراه في الموارد الاسلامية عن الجاهليين يجب ان يفحص ، ويدقق بعناية ، لاحتمال وجود التحامل فيه على العرب ، من قبل اناس ظنوا ان في التشهير بهم قربة وحسبة الى الله : وان محاسن دين الله لاتظهر الا بتجريد « عباد الاصنام » من كل حسن وجيد ومن كل علم وفهم ، والاسلام كما نعلم ثورة على الشرك ، فوجهة نظر

رواة التاريخ الجاهلي نابعة من هـذا الاتجاه ، ومـا نراه عن الخـلافة والخلفاء الراشدين ، يجب دراسته بكل عناية ، فما من خليفة منهم الا وله مبغضون ومعادون ، فالخلفاء امراء المؤمنين ، ساسة وحكام امة ، ولكل حاكم محب ومبغض ومن طبيعة الحكم ان يخلق للحاكم معارضة بين الناس ، قد تكون بغير سبب مباشر وتماس بالحاكم وانمـا لمجرد تسنمه الحكم !

الفصل الثالث

العرب أمة إبداع

عجيبة طبائع هذا الكاتب ، بل هذا المؤرخ ، بل هذا القلم الذي كتب تأريخنا بدمع القلب ، وكتبه بنزيف العقل ، هذا العلامة جواد علي الذي انتشر ظله في المكتبة العربية في الاربعينات رأيته لايمل من التأريخ ، رغم وطأة القدر تخيم في جوانحه ، فقد نبهه الطبيب في الاسبوع الماضي ، بأن يركن في جوانحه حتى تخرس حوله كائناته . قال : فشلت آخر تقارير المختبر ، وأرى الموت لطيفاً يـزورني ، ثم تمتم : التاريخ ، التاريخ ، قالها بخيال (أم مهدي) القابلة العجوز التي تنبأت الى أمه . . . التاريخ ، التاريخ ، سيصير ابنك كاتباً ، هي إذن الـذكريـات التي تصبح بعـد غيب تاريخـاً ، فكيف يترك هـذا التاريخ ، لا يقرأ فيه ولا يمحص ، ومن يكمل له (قـاموس الفـاظ الجاهلية الواردة في كتابات الجاهليين) ، أيكون حاله ، الان ، كحال ابن منـظور ، في لسـان العـرب ، أو كحـال الـزبيـدي ، في تـاج العروس ، قال : أجلس . . . ودع تـلامذة الـرازي بما يقـولون ، ونحكي « قصة البقية من حياتي في ذكريات التاريخ » وصار يتذكر اول ما يتذكر ، في مشاهداته :

نظرة مؤرخ الى احمد حسن الزيات !

فمن هو الزيـات . . الذي ارتبط بـه العلامـة جواد عـلي في



جواد علي والعلامة محمد بهجة الاثري والمطبعي في مكتبة المجمع العلمي العراقي

الثلاثينات . تفيد حياة الزيات ، انه ولد عام ١٨٨٥ في قرية (كفرد ميره) بمصر ، واثناء جهده الادبي والفكري والنقدي ، انشأ مدرسة ثقافية كبيرة ، تخرج فيها رواد الثقافة الحديثة ، وبدأ حياته الادبية ، كما يصفها هو : كنا ثلاثة ألفت بيننا وحدة الطبع والهوى والسن ، فالطبع مرح فكه ، والهوى درس الادب وقرض الشعر ، والسن فتية لا تتجاوز السادسة عشرة ، وكان طه حسين قاعدة المثلث ، ومحمود زناتي وانا ضلعيه القائمين . . أو كان المبرد صاحب الكامل قلب الطائر . والزمخشري صاحب الكشاف وثعلب صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ، لقب بها بعضنا بعضاً ، لنزعة فكرية او فنية كان ينزعها كل منا في نظر اخويه . .

وجاء الزيات الى العراق وتعرف اليه الدكتور جواد علي : (جاء يدرس الأدب العربي في دار المعلمين العالية ، وكنت طالباً عندئذ وفي الصف الاول) . . « وفي صحف العشرينات اشارة الى ان (رسول الثقافة المصرية) وصل الى بغداد في كانون الاول عام ١٩٢٩ بعد ان تعاقدت معه الحكومة العراقية على ان يتولى درجة استاذ الاداب العربية » .

وبقي الزيات في العراق ثلاث سنوات ، امتد فيها الى حياة الثقافة العراقية والى طليعة رجالها ومدارسهم وأفكارهم ، وكان في نظر

العلامة جواد علي : ذا اسلوب هادىء رصين في الكتابة ، كأنه (الموزائيك) يمثل طبع الاستاذ ، حيث كان هادىء الطبع . . وفي كلامه حلاوة ، بعيد عن الالفاظ الخشنة ، بليغ الاسلوب ، لكن معاني كلامه أخف وزناً من صيغ جمله ، وهو في نظري رسام ، يجيد نظم الكلم ، ويتعمد في التأليف بين الالفاظ وفي موسيقية الكلام ، ولكنه دون ذلك في المعاني ، فالبلاغة عنده ، ببلاغة توازن الالفاظ وموسيقى الجمل والكلم . .

وكانا ، مُعاً ، يجلسان جلسة علم او مطارحة . . ورأيته : خجولاً هادئاً ، اذا تكلم ، حذر في كلامه ، لئلا يؤذي احداً بأسماعه كلمة نابية ، لكنه اذا غضب ، استعمل امضى اسلحة النقد ، في طعن من غضب عليه .

والمعروف ان الزيات بعد عودته الى القاهرة اصدر مجلة (الرسالة) التي أصبحت في نشرها الاتجاهات الادبية الواسعة ، منبراً مهماً في حركة الوعي العربي أبان الثلاثينات وما بعدها ، وكان العلامة جواد علي احد اقلامها ، ويقول فيها : كانت الرسالة من خيرة المجلات الادبية الراقية ، وبقيت على مستوى عالٍ رفيع ، يكتب فيها مشاهير كتاب مصر كالعقاد وابراهيم عبد القادر المازني وأحمد أمين وغيرهم . . فلما وقعت الحرب العالمية الثانية ، ارتفعت الاسعار ، لم

يرفع الزيات من مبلغ المكافأة الـذي كان يـدفعه للكتـاب الكبار ، فتركوا الكتابة فيها !

* من أين عرفت ذلك !

ـ سألت المرحوم ابراهيم عبد القادر المازني عن صحة ذلك ، فقال : نعم ، كان الزيات يدفع مبلغ خمسة جنيهات عـلى المقال ، وتغيـرت الدنيـا وارتفعت الاسعار ، وتغـير كل شيء ،وبقي أجـر الاستاذ أخينا الزيات واقفاً في محله لا يتزحزح ..

ثم سألت المرحوم عباس محمـود العقاد عن ذلـك فأيـد قول المازني ، وكنت ازور العقاد في بيته في هليوبولس مع الاستاذ الزيات في اغلب الاوقات .

.. وحينما سألته عن الكاتبين قال العلامة جواد علي :

ـ بين اسلوب الزيات في الكتابة واسلوب العقاد فيها ، قدر ما بين نفسيتي الشخصيتين من تفاوت ، وهذا شيء طبيعي ، لأن الكتابة افكار مدونـة بحروف ، وهي تعبـر عن نفس الكاتب وعن مـزاجه ودرجـة ثقافتـه .. « والظاهـر ان الدكتـور يحـذر في اعـطاء الـرأي بالموتى » !

تيارات فكرية !

وكنت استعرض مع العلامة جواد علي ، بل يذكرني بملامـح

تلك المرحلة الغنية بشواهد النهضة العربيـة . . وفهمت انها المرحلة التي تبتدىء بأواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وقلت له : (ماذا وضعت في خزانتك من نفائس هذه المرحلة ، قال) :

ـ كانت مصر يومئذ مصدر الاشعاع الروحي في الوطن العربي ، وقد هاجر اليها اللبنانيون كانوا من أعلام الفكر بالنسبة لذلك اليوم ، وقد اشتغلوا بالصحافة ، بصورة خاصة ، وبالتأليف ، وكانت مجلة المقتطف مصدر اشعاع فكري ، لما حوته من مقالات فكرية عميقـة وآراء فلسفية لم تكن مألوفة اذ ذاك ، ثم كانت مجلة الهلال لجـرجي زيدان وجريدة المقطم والاهرام وغيرها ، وكان الناس في بقية الوطن العربي يتبارون في الحصول عليها ، لـلاطلاع عـلى نوع جـديد من الافكار والاراء .

* وحال العراق يومذاك ، هل تأثر بهذا الاشعاع . . تجربتك !

ـ وهنا . . كان الاقبال على المعرفة من هـوايات المتعلمـين ، يقبلون عليها لا للحصول عـلى شهادة تـوظف ، وانما لغـرض ذات المعرفة والعلم . . وأتذكر ان في جملة ما أُثير من مشاكل يومذاك ، هو نظرية (داروين) و (أصل الانواع) وقد اطلعوا عليها من مقالات ، ومن ترجمة (الدكتور شبلي شميل) لآراء داروين ، وكان من المؤيدين لها . . ولما وصلت هذه الترجمة الى العراق ، رد عليها رجال الـدين ومفكرون ومن المهتمين بالفلسفة والهيئة .

* وما كان تأثير هذا الجدل . . !

- تأثر الوسط الثقافي . . واخذت فكرة (المشروطية) مكانة من رجال الفكر ، فمنهم من أيدها ، بأعتبار انها تعبير عن ارادة الامة ، ومنهم من عارضها ، باعتبار انها بضاعة مستوردة من الخارج ، من بلاد الكفر . . فهي بدعة وضلال !

* وبمناسبة قولك من (بلاد الكفر) فأية ظواهر اجتماعية برزت اثر هذا التعبير ، هل أرخت ذلك . . !

- انت ذكرتني فهيجتني . . أتذكر (بعين المؤرخ :) انه لما دخل الانكليز العراق وارادوا تدريس اللغة الانكليزية ، هب كثير من الناس بمعارضتها ، بأعتبارها لغة الكفار ، وليس من الدين تشجيع هذه اللغة !

ثم : لما حاولت الحكومة فتح مدارس البنات ، عارضها بعض الناس ، بحجة ان ذلك : فساد للبنات ، وانهن سيكتبن رسائل غرام . . . ولكن الامور سارت عكس رأي هؤلاء !

* واعتقد ان مسألة الحجاب والسفور قد رافقت هذه التيارات . . !

- اثيرت بشكل حاد . . . وكان بعض الشباب يومئذ يدعون الى السفور واخرجوا مجلة تدعو اليه ، وقد فشل المعارضون للسفور في

منعه ، كما فشل الداعون اليه في نشره . . لأن القضية لم تكن بأيدي هؤلاء . . الـداعين او المعـارضين ، وانمـا بأيـدي الزمن ، فـالزمن وحده ، أي . . ظهور الظروف الملائمـة والناضجـة هو الـذي يحل (المشـاكل) بـالاستنـاد الى العـوامـل الجـديـدة التي تنتج في قلب الظروف ، والتي تكره المرء على تغيير المألوف ، فحل الزمن مشكلة السفور والحجاب ، ومشكلة توظيف البنت ، وغيرهمـا ، على نحو مجرى الماء !

علمني التأريخ !

ذات يوم جئت الى العلامة جوادعـلي ، ورأيت وجهه يـطفح بالاشارات ، وكان يتكىء على جوع وظمأ الى العلم شديدين ، وكان يدمدم في العلم ، وأحسست انه صار (صـوفياً) في هـذا العلم ، وكنت اقول له ، اي علم ، انت تغرق فيه ، هذه اللحظة ، قال : (هو علم الأولين) قلت لـه . . وعلم الآتين ، قـال : (انا مؤرخ للأولين ، بـل اكتب في الأولين) ، ونفـذت اليه فـرحاً بـالأولين ، وقلت : هؤلاء الاولون مضيت فيهم ونهلت من جذورهم واشتبكت في صحائفهم ، فماذا اكتشفت في تأريخهم . . العربي والاسلامي ، قال : الأفضل ان تقول لي ، ماذا تعلمت من قراءتك للتأريخ العربي والاسلامي ، ثم قال : اعطيك بعض ماتعلمت ، والاخر . . انشره

بعد موتي ، وقلت له : اية حكمة في ذلك ، قال : التاريخ عصب حساس وآراء المؤرخ تثيره ، وانا لا اريد ان اكتب في الاثارة التي انت طالبها ، ولما حرّكت هذا العصب ، قال :

ـ تعلمت ان تاريخ العرب القديم جزء من تاريخ العالم ، ولاسيما وان جزيرة العرب هي وسط بين العالم القديم ، آسيا وافريقيا واوربا ، فلا يمكن ان تعيش بمعزل عن العالم . . خذ جنوبها ، فلهذا الجنوب حضارة متميزة ذات معالم تختلف عن حضارة الشمال ، بسبب اختلاف الطبيعة والبيئة والجوار ، وهي لمركزها هذا ، كانت على اتصال دائم بالعالم . . تاجر تجارها قبل الميلاد مع اليونان ومع مصر ، وكانت تبتاع وتشتري من جميع اسواق عالم ذلك الوقت .

* دكتور . . ينبغي ان نتوقف حول هذا الاتصال الحضاري القديم ، وتعطيني استدلالك في هذا الاتصال . . !

ـ هناك ادلة كثيرة . . منها : عثور العلماء على نصوص عربية جنوبية تعود الى ما قبل الميلاد في جزيرة « ديلوس » من جزر اليونان . . وفي مصر في الجيزة وفي مواضع اخرى من العالم . . وقد دونها اناس من التجار ، من (معين) ومن غير معين من العربية الجنوبية .

* واستدلالك الكتابي الأرقى . . !

ـ مانقرأه في التوراة . . وفي القرآن الكريم عن زيارة ملكة سبأ

لسليمان وما طلبته منه من الحكمة والموعظة الحسنة . .

* وتفسيرك (التاريخي) لهذه النصوص . . من وجهة نظر التاريخ !

ـ ان ملكة سبأ هذه كانت على ثقافة ، وانها كانت تبحث عن الفلسفة وهي الحكمة وانها لم تكن في عزلة عن العالم ولا كان العالم الخارجي بعزلة عن الجزيرة !

« . . ورجعت الى الوراء . . وذكرت العلامة جواد علي بأمزجة بعض المؤرخين في فصل تاريخ العرَب قبل الاسلام عن تاريخ الحركة الاسلامية ، قال : لا . . لايجوز الفصل . . وكان يعطيني جواباً شاملاً : اذ انه تاريخ واحد ، لأن الاسلام صفحة من صفحات تاريخ العرب ، وتتمة له وجزء منه ، وقد عاش الرسول الى يوم المبعث فيه . . ولفهم الاسلام وسبب الدعوة لابد من دراسة جذور الوضع في جزيرة العرب وفي خارجها ، حتى يمكننا معرفة فلسفة الدعوة التي جاءت بها ، والا كان فهم المؤرخ لتاريخ الاسلام فهماً مسطحاً غير علمي . . » .

إبداع العرب !

ولا ينسى الحديث الأساس . . فالعلامة جواد علي تعلّم من التاريخ العربي :

ـ ان في العرب قابلية على الابداع والانتاج لو توفرت لديهم

الظروف المؤاتية . . ومنها التوجيه الحسن ، فهم : عنصر له ذكاء . . وهم عاطفيون يفرحون بسرعة ويغضبون بسرعة ، وللكلمة عندهم مقام . . ومما يؤخذ علينا في الخارج ، ان للكلمة موسيقى مؤثرة على الاذهان ، وهي آفة ينبغي التخلص منها . . وعندما كنت في امريكا نبهني الى ذلك احد اساتذة التاريخ الحديث المرحوم الدكتور فيليب حتي . . فيما يخص الدعاية العربية في الدفاع عن حقوقنا ، اذ اننا لا نستخدم في الدعاية الاسلوب الهادىء في عرض قضايانا المركزية .

* وشأن الصهيونية في امريكا . . !

- انهم يستخدمون النصوص الدينية لمحاربة العرب . . وهي عقد ثأرية ، كالنص الوارد في التوراة : ان الله قال لهاجر ان ابنك اسماعيل يكون رجلاً وحشياً يده على الكل ويد الكل عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن . . (التكوين - الاصحاح السادس عشر - الآية ١٢ وما بعدها) وتقصد التوراة بأولاد اسماعيل : الاعراب ، وكان الاعراب يغيرون على اليهود لاعتداءاتهم . . والعرب في التوراة ، هم الاعراب ، اي سكان البادية ، لذلك فان النعوت الواردة فيها هي نعوت لعرب البادية اي للأعراب . . اذ لم تكن صلات هؤلاء حسنة بالعبرانيين . . وهنا ينبغي تصحيح التاريخ من قبل المؤرخين المستعربين ، فلا يجب ان يظلم العرب لوجود عقد تاريخية ، كان السبب فيها ، العبرانيون انفسهم . . . وهذة النعوت وردت ايضاً في

كتب اليونان والرومان (ولكننا اذا درسناها وقرأنا المواضع التي وردت فيها ، نرى انها مثل التوراة) . . ان ما يقتل التاريخ : هو التعصب !

* والعقلية العربية في التاريخ . . !

- نشأت من عوامل اقليمية وعوامل طبيعية اثرت فيها ، وتميزت بطابع خاص . . فقد ورد عن (ديودورس الصقلي) وصف للعرب ، بأنهم يعشقون الحرية ، وهم يعتقدون بالارادة الحرة . . وهذا المؤرخ يشارك مؤرخاً آخر في هذا الوصف هو (هيـرودوتس) الذي إشـاد بحب العرب للحرية ، وحفاظهم عليها ومقاومتهم لأية قوة تحـاول استرقاقهم واستذلالهم ، ثم ان هذه الحرية هي الصفة البارزة التي يتصف بها العرب من وجهة نظر المؤرخين اليونان واللاتين ، ويذهب (لامانس) الى « ان العربي نموذج الديمقراطية » بينما رمى المستشرق (دوزي) العرب بالاختلاف في العقلية . . فمثلاً : ان القحطانيين يختلفـون في النفسية عن نفسيـة العدنـانيين ، ورمـاهم (اوليـري) بضعف الخيال وجمود العواطف . . وهؤلاء ينطلقون من ان (لسان العربي امهر من عقله) . . وهي تهم مبتكرة أساسها المصالح !

المستشرقون في كتاب التاريخ !

انا اعرف ، ان العلامة جواد علي ميال الى المستشرقين ، وميله قائم على ان لهؤلاء فضلاً . . بحلهم رموز الكتابة المسمارية وطلاسم

الكتابة الهيروغليفية ، وبنشر ترجمات النصوص المسمارية ، وبتشخيصهم حروف المسند والابجديات الاخرى ، اعرف هذا في الدكتور جواد ، لكنني طلبت منه ان يكشف جانباً آخر ، فيه ريب وشك وفيه مدعاة للتساؤل ، قال : المستعربون (المستشرقون) بشر ، وفي كل امة من الأمم ، الصالح والطالح ، والحكم عليهم بالاخلاص الى التاريخ العربي او بعدم اخلاصهم فيه حكم جائر ، لايجوز صدوره من انسان مؤمن واسع الصدر !

* لكن يا دكتور . . هناك من الوثائق مايؤكد الشبهة في العديد من هؤلاء المستشرقين . . (وكنت اقدم للدكتور بعض قرائني في الادانة) قال :

- هم على العموم يقدرون على جهودهم ، برغم مما يقال عن البعض منهم ، من وقوعهم في احابيل السياسات ، وتوظيف انفسهم في خدمة المصالح الاستعمارية التي لا تليق بعالم ينسب نفسه الى المعرفة والعلم والبحث !

* فكيف اذن تفسر تعصب اكثر المستشرقين على العرب والمسلمين . . ؟

- ان ما تسميه تعصباً ، قد يكون مصدره اختلاف وجهة النظر ، ثم هم ليسوا بمسلمين . . فتفكيرهم في تفسير الحوادث يختلف بالطبع عن تفكير المسلمين . . حتى ان منهم من له وجهة نظر خاصة في

النصرانية ، فمثل هذا الرجل لا يقال عنه مخلص للاسلام ، او غير مخلص ، ولا يحاجج الا بالحجج والبراهين !

هذه سجلاتهم في عيون التراث !

وانفعل الدكتور جواد علي ، وما رأيته مرة ينفعل بوجهي ، وأحببت فيه هذا الانفعال ، لأن انفعال العالم يهب لنا تساقط الثمر من شجرة المعرفة ، قال : أتعلم ، اننا لقرون كنا عالة على هؤلاء المستعربين ، وكنت استفز فيه هذه (العالة) ، وفتح لي معرفته بعلم هؤلاء الذين اخترعوا عيون تاريخنا وصار يسرد تدوينهم وبحثهم وشواردهم :

- وأدلة كثيرة على ما قام به المستعربون في تآليفهم عن الجاهلية ، فأولهم المستعرب (كوسان دي برسفال) وهو من العلماء الفرنسيين ، فقد بحث في الجاهلية وقدم نتائج مهمة في كتابه (تاريخ العرب قبل الاسلام) غير ان هذا الكتاب كما يعرفه الدكتور جواد علي قبل اكثر من ثلاثين عاماً في أحد تقاريره بانه : (أصبح قديماً وفيه نواقص كثيرة) وهو لا يتفق اليوم مع أساليب البحث الحديثة ، وقد اعتمد مؤلفه على المصادر العربية ولا سيما كتاب (الاغاني) وعلى مصادر اخرى كانت معروفة في ذلك الوقت !

وهناك المستعرب (بركر) الذي جمع مادة نقدية عن تاريخ

العرب في كتابه (جزيرة العرب قبل محمد في الآثار) ومثله فعل المستعرب (كيتاني) الايطالي الذي له بحث جيد في فهم تاريخ الجاهلية والاسلام ، وقبل حقبة نعته الدكتور جواد علي بأنه (لايخلو من هفوات ومن تغلب العاطفة عليه ولا سيما القسم الخاص بتاريخ الاسلام) . . وعن جغرافية بلاد العرب القديمة كتب المستعرب (تشارلس فورستر) وهناك رسالة صغيرة عن احوال العرب قبل الاسلام للمستعرب الالماني (اوتو ويبر) . . وكان بعض هؤلاء يعتمد في بحوثه على اجتهادات النصوص التوراتية . . ومن المستعربين من كتب عن موضوعات خاصة في تاريخ العرب ، متناولين اجزاء اجتماعية ودينية واقتصادية وجغرافية من هذا التاريخ مثل ما ذهب (رونشتاين) والالماني (ثيودور نولدكه) و(ارنست اسيندر) و (بركمن) و (لودولف كريل) و (فلهوزن) الذي الف كتاباً في الوثنية قبل الاسلام وكتابه من خير الكتب في هذا المجال ، ومن المستعربين من اهتم بالدراسات الجادة في تاريخ العرب الجنوبيين ، وفي ترجمة الكتابات الحضرمية والسبئية والمعينية والقتبانية ، ومن بحث في لهجاتهم ولغاتهم ، وهم (نيلسن) و (فرتز هومل) و (رودو كناكس) و (ميتوخ) و (داؤوهاندتس ميلر) و (فنت) و (الاب جامة) الذي ذهب مع بعثة امريكية الى الجزيرة لدراسة الانسان ، وهو الخبير بمعرفة النصوص القديمة وبتعيين زمن كتابتها .

الفصل الرابع

وللعلامة جواد علي رأي سائق ، فيما يتعلق الامر بالكتابات الجاهلية ، وهو : (ان غالبية من بحث في هذه الكتابات وترجمها اعتمد على العبرانية وعلى السريانية فيما ترجم من نصوص ، ولهذا فهم لم يوفقوا في هذه الترجمة) .

وتقع مسؤولية تصحيح هذه البحوث على المؤسسات الثقافية العربية ، وان قول العلامة جواد علي يدفعنا الى ان نتساءل بمرارة ، اين هي مسؤولية مؤسسات البحث في الجامعة العربية في حل اشكالات التاريخ العربي ، وفي مقدمتها اشكالات اللهجات العربية القديمة وضياعها بين القبائل وبطون الكتب . . !

ومن طرائف العلم او من مفارقات الزمان ان الدكتور جواد علي طالب هذه المؤسسات في الصحافة وفي منابر المؤتمرات العلمية قبل اكثر من عشرين عاماً للبحث في هذه الاشكالات ولدراسة العربية الجنوبية وجمع معاني الفاظها للوصول الى تفسير كتابات المسند وللوصول الى أهم حلقات تاريخنا العربي الضائعة ، وان هذه المؤسسات لم تعر اهتماماً لذلك ، ولم تنتبه الى أهمية هذا العمل . . فوجد انه من الواجب القومي القيام بمفرده بجمع هذه الدراسات وتحليلها بشكل علمي منظم ، فوضع لها معجماً كبيراً ، مثبتة فيه ، تفسيرات الالفاظ الجاهلية ، بجهد مبدع ، قل نظيره في المكتبة التراثية ، وانه فتح فيه

فتحا تجاوز فتوحات المستشرقين . . ان هذا الجهد الذي انفق عليه عمره واداته وطاقاته الذكية ينزوي الآن في رف من رفوف مكتبته التي علاها غبار النسيان منذ زمن ، وقديماً صرخ العلامة جواد علي قائلاً :

(ان مما يثير الأسف والألم في النفوس ، ان نرى الغربيين يعنون بتاريخ الجاهلية ، ويجدون في البحث عنه والكشف عن مخلفاته وتركاته في باطن الارض ، ونشره بلغاتهم ، ولا نرى حكوماتنا العربية الا منصرفة عنه ، لاتعنىٰ بالآثار العناية اللازمة لها ، ولا تسأل الخبراء رسمياً وباسمها . . البحث عن العاديات والتنقيب في الخرائب الجاهلية لاستخراج ما فيها من كنوز) ! .

التلفيق والتدليس في كتب ابليس !

ومادمنا في القديم من تاريخنا ، فأن الدكتور يغريه البحث عن التدليس في هذا القديم ، فهو مر فيه وعانى فيه وكشف الصحائف السود في مطاويه وقلت يادكتور . . وجدت في كتب ابليس اخباراً ملفقة عن العراق القديم فلأي سر وضع التدليس قال : ـ وضع الكتب في التلفيق شيء معروف مألرف . يستخدمه المغرضون لأجل الاضرار بالغير ، وهو عمل معروف حتى اليوم ، وقد ألف الصهاينة كتباً في تشويه سمعة العراق والعرب لأسباب سياسية ، كما لايخفى . . ووضعت مثل هذه الكتب في الاسلام وفي الاديان الاخرى كذلك ،

تقولا على ألسنة المذاهب وطعناً بها ، وليس بعيداً قول (نشوان بن سعيد الحميري) المتوفى سنة ٥٧٣ هـ : « وقد كثر التدليس في الكتب والزيادة في الاخبار ، والتأويل لكتاب الله عز وجل ، على قدر الاهواء والمذاهب والآراء » ، وروي ان « عبد الكريم بن نويرة الدهلي سير عن رسول الله ﷺ ، اربعة آلاف حديث كذباً ، فقتله محمد بن سليمان بن علي بالكوفة وصلبه ، فقال للمسلمين حين أحس بالقتل : اعملوا ماشئتم ، فقد لبست عليكم دينكم وجعلت حلالكم حراماً وحرامكم حلالاً ، ودسست عليكم في كتبكم اربعة آلاف حديث كذباً ، كل يعملون به منها » . . ووضعت كتب على لسان الرسول في امر خيبر وفي معاملة نصارى نجران . . وقد عرف زيفها نقدة العلماء !

* * * * * *

العلماء فيهم خوف من تحريف وتصحيف ، فهم إن حرّفوا مالوا الى الشيطان ولا يعذرون في التغافل عن حقائق التاريخ ، وهم اهل الدراسات في هذا التاريخ ، والعلامة جواد علي كالمسعودي يخاف تحريف ماغبر في الزمان ، لأنه والمسعودي وأولئك يحتفظون في خزائنهم بمفاتيح الضمير ، وهذا المسعودي كان في عام ٣٤٠ من الهجرة ينهى عن التصرف في التاريخ ، ويقول . . فمن حرّف شيئاً من معناه ، او أزال ركناً من مبناه ، أو طمس واضحة من معالمه ، اولبس شاهدة من تراجمه ، او غيره ، او بدله ، او شانه ، او اختصره ، او نسبه الى

غيرنا ، اواضافه الى سوانا ، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمته وفوادح بلاياه مايعجز عنه صبره ، ويحار له فكره ، وجعله الله مثلة للعالمين ، وعبرة للمعتبرين ، وآية للمتوسمين !

* * * * *

لم يناقشني العلامة جواد علي في هذا النص ، وانما ألقى إليَّ مقولة فولتير : (انه لايمكن ان تتوقف عجلة واحدة في الآلة الكبيرة دون ان تلقي بالطبيعة كلها خارج نطاق سيرها وان المؤرخ لايحتاج إلا الى تتبع سير العقل الانساني بعد ان يترك نفسه في عالم القوانين الحتمية) . . ثم أنعم عليَّ بنظرة من أسراره ، واستوطن ذاته !

في السبعينات سألت الدكتور فيصل السامر عن رأيه فيما كتبه المستشرقون عن تأريخنا قال : لم تكن دوافع الاستشراق نبيلة كلها ، فاذا كانت هناك جماعة من المستشرقين دفعتهم الى دراسة التاريخ العربي ، دوافع علمية صادقة ، فأن لفيفاً آخر ، وخاصة بين المستشرقين الاول ، كانت تحدوهم الى دراسة التاريخ العربي دوافع التبشير من جهة واهداف خدمة المصالح الاستعمارية من جهة اخرى ، وكان لتعصب الغربيين القومي وحماستهم الدينية وجهلهم بتاريخنا خلال العصور الوسطى أثره الفعال ايضا ..

وقلت للعلامة جواد علي هذا الرأي ، فصمت صمتاً بليغاً ، وقال : للمستعربين فضل حل الخط العربي القديم المسمى بالخط المسند !

* وفي السبعينات ايضاً ، سألت الكاتب العربي احمد عباس صالح عن النزاهة والموضوعية في كتابات المستشرقين قال : ان تعرف الغرب على تأريخنا كان يحمل في طياته بعدين ، الاول معرفة حقيقة امتنا ، والثاني تبرير السيطرة علينا ، واعطاء كلمة (الاستعمار) معنى حضارياً خادعاً ، لذلك فإن فيه من « العلم » القدر اللازم من روح البحث عن الحقيقة ، وفيه من « التبرير » القدر اللازم لاخفاء الطابع الهمجي لتحرك الجيوش واستيلائها على مقدرات البلاد المغزوة !

وقلت للعلامة جواد علي رأياً كهذا ، قال : يكفي هؤلاء فخراً ، انهم نشروا الكتابات الجاهلية التي أمكن قراءتها ، ودونوا تاريخنا العربي بأسلوب جديد !

الماضي ومصادره

رأيته هذه المرة منكباً على مخطوط ، وهو لا يدري ماذا يدور في داخله من تآكل ، وشيئاً فشيئاً يتناقص دمه كقطرات الندى ، وما رأيت العلامة جواد علي في كتبه ، إلا كان منكباً في رمز او في تأويل ، ولعلها المخطوطات التي جعلته ، دائما ، ينكب في روح التأريخ ، فهو يأخذ منها مظاهرها ، وسيلة لادراك الروح ، كان ينقل شعرا صوفيا : « ايه ايتها القوة التي تستند اليها كل الخليقة ، انك لتظلين دائما ثابتة لا تعرفين التغير » .

وليس بالضرورة ان يقر هذه (الصوفية) هو ينقل وينقي المظاهر ، هو مؤرخ يستخلص هذا التركيب في التأريخ ، او هو مع مذهب دلتاي في قوله « نحن نفسر الطبيعة ، ولكننا نفهم الانسان » ، ويقول جواد علي : (أنا بموتي أفقد كل حس كان عندي) أيريد بذلك ان يفعل في التأريخ ، كما فعل ابيقور حينما ترك مشكلاته القديمة بلا جواب ، وحينما اراد ان يفلسف الشك ويحيله الى احدى نتائج التخيل المطلق ، ويقول (لم يكن اهتمامي ابيقوريا) انظر . . واظنه كان يقول برمز : (وبعد وضعي في قبري ، ودفني ، يبدأ وجودي ، وهو جسمي ، في الانحلال ، حتى يفقد كل معلم له) انه اذن يتوحد في التاريخ بالمجاز ، وظننته منفعلا باللغة ، والعلماء لهم رموز في اللغة ، لكني أدركت لغته : (ولدت جاهلا ومت جاهلا) ويحسب الآن انه ميت ، ويرجع لينفعل باللغة : (لا ادري لم جئتُ ولم متُّ) ويذكّرني

بأبي ماضي . . لا ، انا لست بأبي ماضي ، صحيح ، ابو ماضي كان يدفع بمجازه الى القدرة العابثة ، وصحيح ان القدرة العابثة في الشعر لاتنتج قيمة فلسفية ، لكن الصحيح الصحيح ، ان الشاعر المهجري ألقى سؤالا وذهب الى ماضيه دون رجعة ، وكان يلقي سؤالا بالقدرة ، ويذهب العلامة جواد علي الى انه (نشأ مؤرخا ، وحاولت ان اتعلم ، فرأيت ان الانسان تتحكم به ظروف تسيّره ، وهذا سبب اختلاف السلوك) ، وابو ماضي كان يتكلم بلغة الشعر ، وكان يحاول ان يفسر التاريخ بوسيلة (العاطفة الرمزية) وهو على النقيض مع مايدعو اليه جواد علي ، فالتاريخ عنده (البحث عن طبيعة الرمز) وطبيعة الرمز تقذف بالمؤرخ الى اصغر نقطة في هذا البحران العظيم : الكون . . أتراه منفعلا ام رمزاً يقول :

ومن أنا في هذا الكون العظيم ، وقد طمس ذكر عباقرة ورجال دولة وعلماء ، وسيطمس ذكرى من جاء بعدهم ، والانسان مهما بلغ من العظمة ومن تمجيد ، فإن وجوده سيكون كوجود غيره ، فأنا وغيري في هذا الوجود سواء . بل اقل من النقطة . . بل اقل من الاقل . . وتأمل الملايين من السنين ، وهي تمضي ، تليها ملايين وملايين !

كان العلامة جواد علي يقول هذا النص ، وليس متبرما قال ، بل ليس راهبا فيما يقول ، كان يعتبر أن (كل فان رمز) في هذا

الاشراق الطبيعي للتاريخ ، في البحث عن مزايا التاريخ الكامنة في الممالك والشعوب والخرائب والهياكل واسئلة الفلاسفة والصديقين ، وقديما هتف ازفلد اشبنجلر على هذا النهج : فهلمّ اذن ايها المؤرخ ، فما افسح الميدان الذي ستجول فيه ، وما اعمق السر الذي ستغوص اليه ، وما ابعد الافق الذي تلقي بنظرك عليه .. هاهي ذي غايتك .. ان تستخلص من نسيج الحوادث الكونية فترة طولها الف سنة من الحضارة العضوية تتخذها وحدة ذات شخصية ، وان تفهمها بكل احوالها الروحية العميقة واطوارها .. وأفاق العلامة جواد علي من (مخطوطه) وطفق يرسل حديثا في تاريخنا العربي :

مصادر التاريخ في الشعر الجاهلي !

وعندما كان ينقل شعرا صوفيا ، فيه نكهة الجاهليين ، قلت للعلامة جواد علي ، ان الصورة التي رسمها الاخباريون لتاريخ العرب قبل الاسلام ، كانت صورة قاتمة ، تصورهم في الجاهلية بأنهم جهلاء ، وانت تبحث في الاخباريين ، فهل كانوا على حق في هذه الجاهلية الجهلاء .. ؟ قال :

- هو زعم زعموه بصورة غير متقنة ، والقرآن الكريم لا يؤيد هذا الزعم ، وان العرب لم يكونوا في هذه الجاهلية الجهلاء التي زعموا ، بل كانت جزيرتهم متصلة بالعالم ، وقد تطرق القرآن الى ذكر

سياسات العرب وتجاراتهم . . وقد صورهم على انهم اناس تربطهم صلات بالمحيط الخارجي . . وفيه معارضة لكثير من الاجتهادات الخاطئة المبثوثة في المصادر العربية الاسلامية . . كان العرب يقفون ، بل هم في زحمة التيارات السياسية العالمية قبل الاسلام . . في موقف متقدم !

* اذن . . هذا القرآن الكريم مصدر فوق المصادر يفند آراء الاخباريين في جهالة عرب قبل الاسلام ، لكنني كنت اثناء بحثي عن تاريخ العرب ، في مصدر اخر مهم ، هو الشعر الجاهلي ، وجدت ان بعض الاخباريين شككوا ايضا في هذا الشعر ، ولم يجعلوه (مصدرا) في تاريخنا ، وانت يادكتور وجدتك مهتما بهذا الشعر وتنقل منه سيرا ومعارف ، فماذا تقول في كونه مصدرا من مصادر كتابة تاريخنا . . ؟

ـ الشعر مهما كان زمانه ومكانه ، مصدر من مصادر التاريخ ، والشعر العربي القديم منه (الشعر الجاهلي) او (شعر ماقبل الاسلام) بتعبير اصح ، هو احد المصادر التي نرجع اليها في تدوين تاريخ العرب قبل الاسلام ، وشعر شعراء ايام الرسول والخلفاء الراشدين ، هو مصدر تاريخي مهم لفهم تاريخ نشوء الاسلام ، وشعر شعراء زماننا ، هو مصدر من مصادر تاريخ ايامنا كذلك ، يرسم لك صورا عديدة من صور المجتمعات ، يستعين بها المؤرخ لفهم منابع التاريخ الذي يريد ان يؤرخه . . فدواوين شعر الشعراء المعاصرين ،

هي مصدر من مصادر التاريخ بالنسبة لمن يريد كتابة تاريخ هذه الايام ، كما ان دواوين شعر الشعراء الجاهليين واشعارهم هي وثائق ومصادر لمؤرخ الجاهلية ، وقيل في الشعر الجاهلي ، انه « ديوان العرب » عن عكرمة قال : ماسمعت ابن عباس يفسر آية من كتاب الله ، عز وجل ، الا نزع فيها بيتا من الشعر ، وكان يقول : اذا اعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر ، فانه ديوان العرب ، وبه حفظت الانساب ، وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما اشكل من غريب كتاب الله وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديث صحابته والتابعين ـ المزهر ٢/٤٧٠ . . وعن ابن سيرين قال : قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه ـ الجمحي : طبقات الشعراء . .

نحل الشعر !

وهذا الشعر الجاهلي شكك فيه من المعاصرين الدكتور طه حسين في كتابه (في الادب الجاهلي) الذي صدر في اواخر العشرينات ، بل قال في نحله ، وان هذا النحل ليس مقصورا على العرب ، والعلامة جواد علي اجتمع بطه حسين وتداول معه شؤون التاريخ والشعر ، فكيف كان يرى اراء طه حسين في هذا المصدر التاريخي :

ـ طه حسين شكك في اصل هذا الشعر ، ومما قاله لم يكن بشيء جديد سوى استعماله بعض عبارات مثل : « وللتوراة ان تحدثنا » و « للقرآن ان يحدثنا » عدت يوم ذاك نابية ، وكان مبالغا في التعبير . . مما حملت الحكومة المصرية على محاكمته ، ودفعت بعلماء العربية وتأريخها على الرد عليه !

ولنرجع الى التاريخ ، لعلنا نجد اساسا لنظرة طه حسين التشكيكية ، فهذا محمد بن سلام الجمحي يقول في طبقات الشعراء : وكان اول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها ، حماد الراوية ، وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ، يزيد في الاشعار ﴿ توفي حماد سنة ١٥٦هـ ـ الفهرست ص ـ ١٤ ﴾ . . وفي البيان والتبيين فان من اشتهر بجمع الشعر (ابو عمرو بن العلاء) . . ويقول العلامة جواد علي :

ـ فمهما قيل في درجة نقاوة الشعر الجاهلي ، وفي نسبة الموضوع منه الى الصحيح ، فإن في المتبقي من البقية ، مادة مهمة متفق على صحتها ، هي عون للمؤرخ في تدوين تأريخه الجاهلي . .

وفي طبقات الشعراء ، قال ابن عوف عن ابن سيرين قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه ، فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد ، وغزوا فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته . فلما كثر الاسلام ، وجاءت

الفتوح ، واطمأنت العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا اقل ذلك ، وذهب عنهم اكثره . . ويزيد العلامة جواد علي من التنويه في ذلك :

ـ بأن قضية الوضع في الشعر الجاهلي ، قضية لم يكن علماء العربية بغفلة عنها ، وبجهل منها . . (وقد عللوا سبب اندثار اكثر الشعر الجاهلي وذهابه بسبب عدم تدوين الجاهليين له ، واكتفائهم بروايته حفظا ، فضاع بتقادم الزمان وبموت الرواة وبانطماس اثره في الذاكرة . .) .

ولا نغفل رأي المستشرقين في هذه القضية ، فالدكتور جواد علي يبسط رأي المستعرب (نولدكه) ، بأنه مع اصالة هذا الشعر ـ معتمدا على علماء العربية ـ وقد اظهر هذا الرأي في كتابه عن الشعر الجاهلي . . .

* * *

اذكر انني سألت طه حسين في اواسط الستينات عن دوافع تشككه في هذا الشعر الجاهلي ، وكنت متحمسا له في ارائه ، فكان يقول : ان مروءة الرواة قد فسدت بالمجون والخلاعة ، وان اهلكم في البصرة والكوفة اجمعوا قديما على فساد الطبع في حماد الراوية وخلف الاحمر وابي عمرو الشيباني ، وكان هؤلاء يجرون مجرى النحل في

الشعر !

وبعد جهد علمي في تاريخ الشعر الجاهلي يخلص العلامة جواد علي الى هذا الرأي :

- ان المؤرخ الذي يستخدم اداته بوعي نقدي ، الحاذق في منهجه ، لن تفسده علة البحث في حقيقة الشعر الجاهلي ، سواء كان موضوعا بالنحل ام صحيحا بالاصالة .

الرحلة والرحالة !

فيما مضى كنت اقرأ للعلامة جواد علي ان الرحالة الاجانب تمكنوا من الارتقاء بالتاريخ العربي الجاهلي بمئات من السنين قبل الميلاد ، على الرغم من ان بحوثهم لم تتنزل سوى امتار في باطن الآثار وفي اماكن محدودة ومعينة . . وكان يقول لي : (انهم ارتقوا بهذا التاريخ على وجه صحيح لاريب فيه) اي انه لم يطعن في هذا الذي بحثوا فيه . . وهذا رأي ربما نعود اليه لمناقشته ، وربما يعود اليه باحثون لإثارته في اثراء دراستنا التاريخية ، لكنني كنت اسأل الدكتور فيما اذا كانت الرحلة ، مصدرا من مصادر التاريخ ام هي حاشية في هذا التاريخ الذي يؤرخ للاحداث والبلدان ، فكان ان جعل (الرحلة) مهما اختلفت اسبابها وغاياتها ، تأريخا ، ومصدرا من مصادر التاريخ ، وبذلك فهو قد ألغى جملة اجتهادات تقول بخلاف ذلك ، وهو يعلل رأيه ، بأن الرحلة هي :

ـ تاريخ بحد ذاته ، لوقوع فعل من صاحبها ، والفعل وما يقع منه : هو تاريخ . . وهي مصدر من مصادره ، لأنها وثيقة تقدم لك وصف ذلك الفعل . . اي العمل ، وهو التاريخ ، تقرأها فتستنبط منها ما تريد . .

واكثر من هذا . . يذهب العلامة جواد علي :

ـ اما اليوم فان الرحلة مصدر من مصادر . . علمنا . . في التاريخ !

ويطبق استنتاجاته :

ـ ان رحلة ابن بطوطة . . ﴿ رحالة مشهور اسمه محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي ولد في مدينة طنجة في مراكش في السابع عشر من شهر رجب عام ٧٠٣هـ ـ ١٣٠٤م ﴾ ذات مادة غزيرة في وصف الاماكن التي مر بها ، في وقته ، من ناحية جغرافية واقتصادية وفكرية وعلمية وسياسية .

الذين ساحوا في ارض العرب !

وكان يسرد لي معاناة من ركب الاهوال الى جزيرة العرب ، السياح والرحالة والذين جازفوا وغامروا بحياتهم ، الذين جاءوا من الغرب الى خرائب الرمل والطين وحجر الكلس ، ليصوروا النقوش وكتابات الجاهلية ، ويحلوا الغازها . . بالعبرانية والسريانية والبابلية ، ولا سيما في المنطقة الغربية والجنوبية في هذه الجزيرة الشاسعة . . وكان

العلامة جواد علي يتخيل كشوفات هؤلاء بانها (احياء لكتابة الجاهلية ، بعد موت طويل) . .

وهو بحسب علمه ، بل بحسب ماقرأ كتب الرحالة الاجانب ، بالعربية او باللغات الاخرى ، فان العلامة جواد علي ، رتب أسماءهم ، وفهرس تواريخ رحلاتهم ، بعد مشقة في عالم المصنفات ، وكنت التقط منه بعضا من هؤلاء : - ففي عام ١٧٦١ للميلاد رحل كارستن نيبور الى جزيرة العرب ، وان هذ الداغاركي يعد اول رائد من الغرب نبه الى (المسند والرقم العربية) واثار في وصفه بلاد العرب ، انتباه العلماء الى اهمية باطن الجزيرة . . وقام في عام ١٨١٠ الدكتور سيتزن بزيارة الى جنوبي بلاد العرب فنقش نصوصا من العربية الجنوبية ، افاد منها العلماء في تدوين تاريخ العرب قبل الاسلام . . ورحل الى الحجاز بركهارد الرحالة السويسري المشهور ، فوصف موسم الحج وكتب باسلوب علمي عن مكة والمدينة وآثار الانباط وعاصمتهم (البتراء) ، ﴿ والمعروف ان ليدويك بركهارد كان في رحلته قد اتخذ له اسما مستعارا باسم (ابراهيم بن عبد الله) متسللا بصفوف الحجاج حتى حقق هدف رحلته العلمية ﴾ . . ويفضل الرحالة هوتن وكروتندن ومكل حل العلماء المتبحرون باللغات الشرقية . . (رموز المسند) ، ورحل العلامة المتخصص بعلم العقاقير الفرنسي توماس يوسف الى الجوف وخرائب مأرب وصروح

المدينة الآثارية فاستنسخ ستة وخمسين نصا كتابيا قديما ، وببراعته الشخصية استطاع ان يكسب ود رؤساء القبائل في تسهيل مهمته .

وكان لفضل بعض العلماء واختصاصهم في فن النقوش ، ان عولجت الكتابة الحميرية وقلم المسند وقدموا فتوحات مهمة في هذا المجال ، وهم : رودكر ووليم كسنيوس وهاينرش ايوالد وفريستل والقسيس ارنست اوسينگر وليفى . . وقام المستشرقون في القرن التاسع عشر برحلات متتابعة الى اليمن والحجاز وباقي ارض الجزيرة العربية ، فوصفوا المدن الاثارية والنقوش والكتابات الاثارية ، ودرسوا الخيول العربية والصحراء ومواسم الحج ، وكانوا يقدمون لنا وثائق في معرفة احوال العرب ، ومن هؤلاء : جورج اغسطس والين وسنوك هرغونيه والسير ريتشارد برتن (الذي تزيا بزي مسلم واسمى نفسه باسم عبد الله) ، ثم رحلت حنة بلنت الى ارض نجد والرحالة تشارلس دوتي الى شمال بلاد العرب وتيودور بنت الى جنوب الجزيرة العربية والرحالة الالماني هاينرتس فون مالتزن الى المغرب العربي الذي درس لهجات سكانه ، ورحل الويس موسل الجيكوسلوفاكي الى شمال الحجاز وبادية الشام وتدمر والفرات الاوسط وكتب كتبا في وصف (العربية الحجرية) وهكذا بقية السياح والجوابين الذين جابوا بلاد العرب وكتبوا فيها عن رحلاتهم ، امثال برونوف وجوسن ورانجن ، عدا البعثات الغربية التي ضمت هيئات من علماء التاريخ والجغرافية والاثار التي زارت ارض العرب وقدمت دراساتها ونتائج

اعمالها في الحفر والتنقيب ، وهي نتائج مهمة عن تاريخ الدول والممالك العربية القديمة .

* وما هي ميزة الرحلة الناجحة ، اي كيف تقوّم يا دكتور رحلة ما . . ؟

- تتوقف ميزة الرحلة واهميتها على مواهب صاحبها ، وعلى دقة ذكائه ، وشدة فطنته في اصطياد خصائص البلاد التي رحل اليها ، وعلى تطور المواصلات ووسائل السفر المتيسرة لصاحب الرحلة . . فصاحب الفكر العميق لايهمه المظهر الخارجي ليصفه ، وانما يريد هو النفاذ الى اعماق البلد الذي يحل فيه ، ليرسم مافيه من بواطن ، لا يستطيع من لا موهبة له من الوصول فيها .

* والرحالة العرب المعاصرون . . ؟

- هؤلاء كتبوا بعض رحلات الى الاندلس واليمن ، والى اماكن اخرى مثل البلاد الاوربية ، ولكنها لم تبلغ مستوى الرحلات العالية التي تصف لك باسلوب نابع عن فكر عميق ، وعن طبع له هواية طبيعية في كتابة الرحلات . .

مدلولات في الحضارة والمدنية والثقافة !

أردت ان اعرف رأي المؤرخ في هذه المدلولات التي يتداولها المثقفون في كتاباتهم ، فيما يخص مصطلحات (الحضارة) و (المدنية) و (الثقافة) فهم في بعض الاحيان يخلطون ويتداخلون فيها ، تاركين

لافكارهم ان تجري فيها بما يشاء الاطلاق او التعبير ، ورأي المؤرخ هو غيره في التثبت من صحة هذه المدلولات ، ويقول العلامة جواد علي : « ان آراءنا في هذه المدلولات قائمة على سياقاتها العلمية » ويتيقن بذلك ، من ان المؤرخ يدفعه العلم في اصطلاحه ، وهو دقيق فيه ، اذن كيف يرى اصطلاح الحضارة :

- الحضارة من الحضر ، وتقابلها في الانكليزية لفظة : (ivilization) وهي (civid) في اللاتينية ، وتعني : (مواطن) ويراد بها في الوقت الحاضر ، الحياة الروحية للانسان . . . مثل اللغة والاداب والفنون والفلسفة والموسيقى والدراما وامثالها مما تبدعه عبقرية الانسان . . وهي تدرك كتابة ، او نقشا ، او تصويرا ، او سماعا ، او نحتا ، معبرة عن العاطفة المسيطرة على روح الانسان ، والتي تظهر في الخلق والابداع .

* والمقياس المنطقي لهذه الحضارة . ؟

- هو تحليل هذا النتاج الواصل الينا ممن كان قبلنا ، ومن هم في ايامنا ، ودراسته ومقارنته مع بقية الحضارات ، لنرى مافيها من درجات عمق وقوة ابداع ، وصلة الحضارة ببعضها البعض ، وصلتها بماضيها وبما لها من صلة بغيرها من حضارات .

ويبدأ الدكتور جواد علي يقارن بين (الحضارة) و (المدنية) :

- المدنية يراد بها المظاهر المجسمة البارزة للروح ، في مثل : البناء ، والصناعة ، والتقنية والمعامل والاختراعات والمبتكرات ،



يحتفلون في بغداد في مادبة اقامها له الاديب التاجر ناجي جواد الساعاتي

وكل مايخلقه الانسان ، مما يرى ويلمس ! فالناحية الخلاقة المبدعة للاشياء . . هي هذه المدنية . . وقد تقدم الانسان من هذه الناحية منذ القرن التاسع عشر تقدما سريعا ، ولا سيما في النصف الثاني من المائة العشرين ، اي لهذا الوقت الذي نعيش فيه ، اذ احدث ثورة في حياة الانسان ، فقذفت الارض ببعض الرواد الى القمر ، ودفعت ببعضهم الى السكن في بيوت من صنع هذه المدنية خارج الارض ، وارسلت ادوات علمية معقدة الى العالم البعيد ، للكشف عن حاله ، تمهيدا لنزول الانسان في عوالم جديدة . .

واما المراد من الثقافة في رأي المؤرخ ، فيعرضها العلامة جواد علي بهذا الفهم : ـ هي مايخص حياة الفرد وصلته بمجتمعه من حيث الانسجام والتصرفات ، . . وقد جرت العادة عندنا ، ان يقال : فلان مثقف ، بمعنى دارس وحافظ وبارع في فرعه ، او عارف بعدة لغات ، او بارع في الكلام ، ولكن الثقافة في نظري ذات معنى اخر :

انها تقدير الانسان لنفسه ، وضبطه لعواطفه واحترام غيره ، والاعتراف بالحق ، كما تريده لنفسك ، واطاعتك للقوانين والاعراف والعادات ، وان كانت ضد رغبتك ، ففي هذه الحالة : عليك العمل على توضيح ما عندك من رأي مخالف باسلوب مقنع ، يجعل الاخرين يسلكون سلوكك في ذلك .

الماضي بلغة العلم !

تحدث المؤرخ عن تقدم الانسان في منتصف هذا القرن من الناحية العلمية ، والتقنية ، فهل تقدم هذا « التقدم » في النواحي الحضارية ، وما هي مقاييس العلامة جواد علي ، في هذا « التقدم » وفي ماضيه . . ؟

- نعم تقدم في هذه الناحية كذلك ، تقدم في اساليب دراسة علم اللغات مثلاً ، ولكن اثر الناحية الروحية للانسان محدود ، اذ لايمكن ان يؤثر في الانسان تأثير المادة فيه ، فاختراع الآلات ، لايكون اثره على البشرية مثل اثر اكتشاف لوح تاريخي اثاري ، فهذا اثره في التغيير كبير ، وذاك اثره خاص محدود الفائدة ، مع اهميته وكونه من اغذية الروح !

ويورد العلامة جواد علي ادلة على قوله :

- ان التاريخ يهيّج ذكريات الماضي ، ويثير الحنين الى ماضي الامجاد ، ولكنه لا يزيد شيئاً اذا عاش الانسان عليه ، منقطعاً عن ركب الحياة . . واريد ان اقول ان انصرافنا الى الحاضر والمستقبل الصناعي والتقني والجماعي ، يجب أن يكون بمقياس أهم من الناحية الأُخرى التي لابد من رفع مستواها كذلك . . والبلاد النامية اشطر في الكلام مع الأسف من الامم المتقدمة بالعلم والصناعة والتقنيات !

وأنا اخالف العلامة جواد علي في بعض رأيه هذا ، فهو صحيح من الوجهة السياقية عندما ينظر الى حركة التطور لذاتها ، أي أنه ينبغي على الأمة أن تأخذ بالتطور بالقياس الى امم متطورة وبالقياس الى ما تفرضه قوانين التطور في المجتمعات الراقية ، لكن ليس شرطاً ان يكون تطور مجتمعنا أو امتنا ، بمثل مقياس التطور الذي ساد المجتمعات الاخرى ، والعلامة جواد علي يذهب الى هذا (التطور) على نحو ما ذهب اليه الشاعر القديم في قوله :

ان الفتى من قال ها أنذا

ليس الفتى من قال كان أبي

فهو وهذا الشاعر كانا يعبران عن الوجهة السياقية لمبدأ التطور ، أي من حلم لما يجب ان يكون عليه تماثل التطور في الامم « الراقية » لكنهما تناسيا ان للأمم مراحل في تطورها ، فقد تفرض احدى هذه المراحل على امة ما ، بأن تدلل على هويتها القومية بالتاريخ ، فتهيجه لا لكي تقع ضحية الغلو في هذا التاريخ وانما لتستمد من هذا (التهيج) القيمة الفردية التراثية الوجدانية للانسان ، المحاصر ، حيث تعمل عوامل تاريخية طارئة على استلابه وفي انتزاعه لهويته القومية ، وان الفتى الذي يؤكد على (آنيته) أي راهنيته لا يستقيم فيه ، تطوره السياقي الصحيح ، الا بنظرته المتجاوزة الواعية الى (ابيه) ، وابوه (التاريخ - الماضي) هو وحدة متكاملة في صراعها الى

الاعلى فلا يمكن ان ينشطر على ذاته ، الى وحدات تطورية أو زمنية متغايرة متقاطعة ، وهذا لا يحدث الا بالقفز على واقع التطور الطبيعي لتاريخ الامة العربية ، فتطورنا اذن نتيجة لتطور وعينا الى تاريخنا ، الموصوف والمعين بدلالته !

* * *

قد اختلف مع العلامة جواد علي في هذا المبدأ أو في غيره ، لكنني لم اختلف واياه في أن للتاريخ ، في صراعه أو كتابته ، وجهات نظر متباينة في منشئها العقلي ، وفي بنائها السيكولوجي والبيئي ، وهو قديماً كان يقول لي : انني اكتب للمتتبعين والمتخصصين ، ومن حق هؤلاء المطالبة بالمزيد . . وأنا لا اريد ان يزيد اكثر مما زاد وفاض بعد هذه الشيخوخة المترنحة في علاتها وآفاتها ، وانما اريد ان يشعر هذا المؤرخ الكبير ، ان اختلافنا ، كان اجتهاداً في تاريخ ، وكل منا يطلب المزيد في هذا الاجتهاد وقبلنا عمل مؤرخ القرن الماضي في هذا الاجتهاد عندما ذهب الى أن : الزمان بداء وحرية مطلقة ، مادام خلقا مستمراً لاشياء غير متوقعة ، فلا خلق الا حيث توجد الحرية ، وأن المكان ضرورة مطلقة ، ولهذا فانا لا نسلب الزمان صفة الحرية الا حين نخلط بين الزمان والمكان فنجعلهما شيئاً واحداً . . فمهما يكن من امر تصورنا للحرية ، فاننا لانستطيع انكارها الا اذا جعلنا الزمان والمكان شيئاً واحداً !

لغة الموتى ولغة الاحياء !

في الشهر الماضي كنت اسمع الحوار التالي في احدى قاعات المجمع العلمي العراقي :

المؤرخ : لماذا نجري احتفالات لعلمائنا الموتى ؟

السياسي : نقدس فيهم أثر الماضي !

المؤرخ : ولماذا تجعلون الماضي زمنا جامدا فينا ، فتكرمون أثرنا ، فنحن دائما حاضرون في الماضي !

السياسي : ونقدس الحاضر ايضا بفعل متساو !

المؤرخ : انا قصدت ان الماضي حاضر وان الحاضر يصبح ماضياً ، واقصد ان التكريم ينبغي لفعل التاريخ الاني !

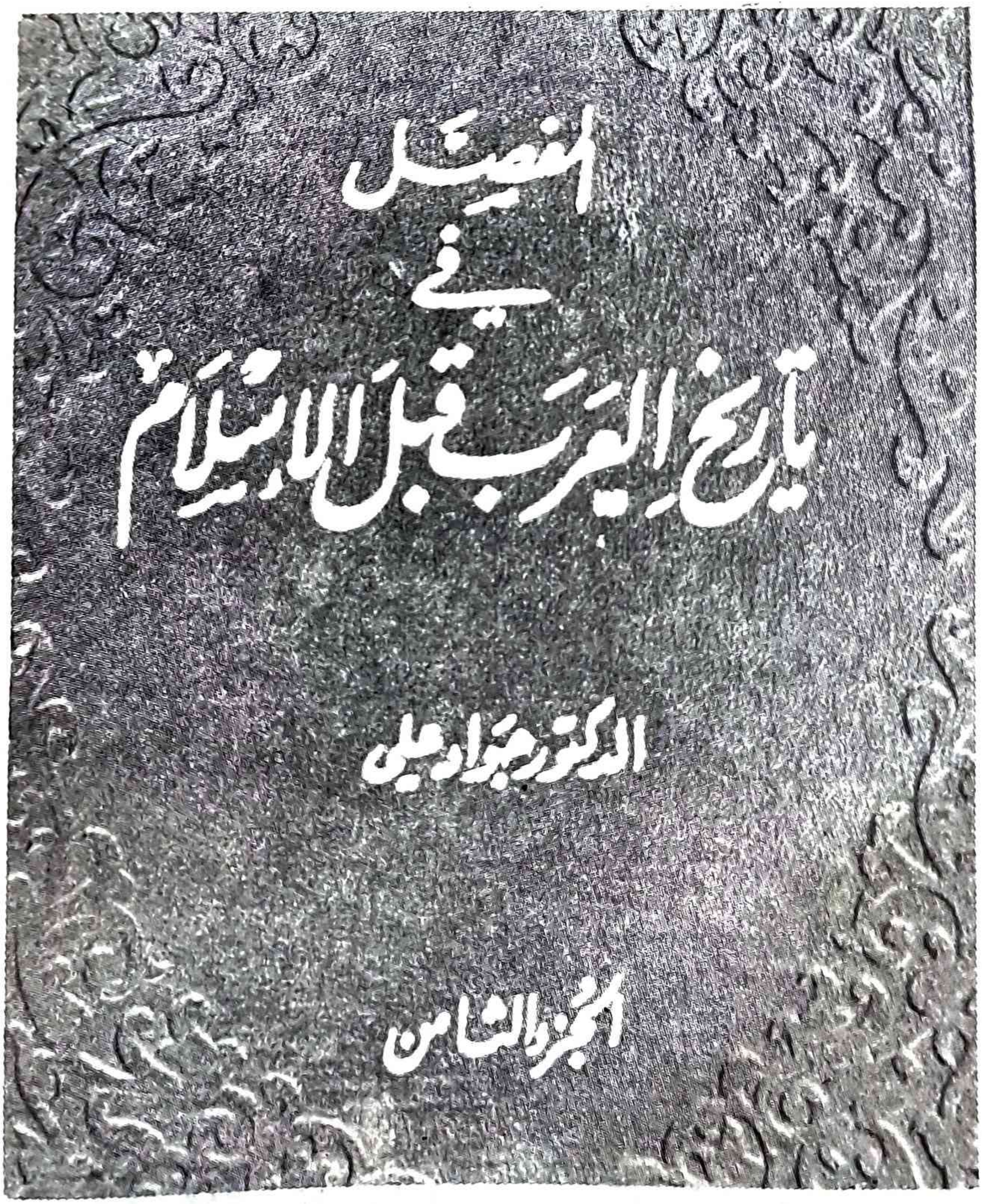
السياسي : هذا فهم جديد لجدل التاريخ . . نحن جدليون في هذا التاريخ !

المؤرخ : وانت . . ؟

المطبعي : انا سمعت منذ طفولتي : لا فارق في الواقع بين الاثنين ، لأن الماضي مستقبل فات ، والمستقبل ماض آت . . اذن كلاكما على حق ، لكن هل يطبق هذا الحق في مؤسسات تعنى اساسا بقضية المصير ، كالجامعة واتحاد المؤرخين واتحاد الادباء ومجلس البحث العلمي والمجمع العلمي العراقي الى باقي المؤسسات التي دونت في انظمتها : ان الانسان هدف التاريخ ؟

الفصل الخامس

المسائل الشائكة في التاريخ



اشهر كتاب في هذه الحقبة

عندما ادخل بيوت المعرفة أُذكرّ علماءها الذين صنعوا لنا شيئاً مذكورا في وثائق العراق الحديث ان في حياتهم ، بل في حيواتهم مادة مليئة باسرار العراق الـوجدانيـة فينبغي اذاعتها وينبغي ان يعـطوها اعترافا بسيرة ، او درسا لمن يريد ان يدرس تاريخنا ، وكان اكثرهم يتحرج في ان يعطي نفسه ، وفي ان يسجل هذا التواتر في الخصب ، ولا ادري بعد هذا لم يمسك افذاذنا عن حديث الامس ، وهو حديث فيه متعه للنفس وعبرة لمن ينبغي ان يعتبر في شيء من تاريخ ، انهم يتحرجون ان يكشفوا ذواتهم ، وانما يتحرجون من هذا الذي دخل جديدا على حياتنا الفكرية ، وهو المذكرات ، لان العراقي يتهيّب من (الانا) الاوربية ، وهم يقولون نحن نخشى ان نذيع الحقائق بين الموتى والاحياء ، ونحن اهل ديوان ، وتقاليدنا في الديوان تمنعنا من اثارة الهمس في تاريخ مضى وانقضى ، وتأخـذنا الخشيـة حتى بعد الموت ، من نشر هذا الذي تسميه صفحة التـاريخ المـاضية . . ان هؤلاء الأفذاذ لو تكلموا في الامس وما انطوى في هذا الامس لقدموا لنا عراقا في اغنى صفحـاته الاجتمـاعية ، والسيـاسية ، هم شهـود ، وبأنفسهم ، ولا سيما اولئك الذين عالجوا الحياة باللغة والشعر والفقه وعلم الكلام ، سيتكلمون كلاما ليس على باب اتعظوا بمواعـظنا ، وانما الكلام الذي يثري اجيالنا الطالعة من رحم الثورة ، المولودة على شيء اسمه الحاضر ، لان هؤلاء القائلين بالتجربة هم ابعد من ان

يتسللوا في فراغ ، او ان يقتنصوا مكانا في فراغ ، فقد عرفنا كتبهم بانها الكتب ، وادركنا شؤونهم في العلم فكانـوا روادا فيه ، ويبقى بعـد هذا ، انه من حق هذه الاجيال الجديدة بان تطالب الرعيل العشريني الذي شهد تجربة بناء الذات بُعيد احداث الحرب الكونية الاولى ، بتسجيـل احـداثهم هم ، وبلغـاتهم في الاحـداث ، وبـأمـزجتهم العلمية ، وبما جبلوا هم عليه من وعي لقوانين المراحل المنصرمة ، وبذلك فانهم يسهلون لنا امر البحث عن مؤرخ الامس ، وامر البحث عن مؤرخ المستقبل ، مثلما هي اوربا تفعل الان . ومثلما هي جامعاتها تفعل ، فتوثق لأفذاذهم الاحياء ، حصصهم في بناء التاريخ الاوربي الحديث !

* * *

وانـا اكتشفت شيئا في هؤلاء ، المفكـرين أو العلماء ، ان في ادمغتهم او في اعماقهم ، من تجارب الحياة العراقية هو ليس الذي نقرأه في كتب الاحداث المعروضة في اسواق المكتبات ، وان مانقله اصحاب الشهادات الاكاديمية عن السنتهم تداخل فيه العرض والبتر والتوليف ، وانه من اجل الشهادة الاكاديمية ، او من اجل ان يكون كرسي الاكاديمية متوازنا ، يتصرف الناقلون ماشاء لهم التصرف ، في مزج الاحداث وحـذف ما لايمكن حـذفه ، واضـافة مـا لايمكن ان يضاف !

بين المؤرخ العربي والمؤرخ الغربي . . !

والعلامة جواد علي يقول : انت لا يجب ان تلقي المسؤولية بكاملها على المؤرخ الأكاديمي ، فهناك المجتمع ، هناك من يضع العراقيل امام المؤرخ في كتابة كل الحقيقة ، وقلت له هذه العراقيل هي ذاتها التي يصادفها المؤرخ الغربي اثناء بحثه عن الحقائق ، فانت عشت مجتمعات المؤرخ الغربي والتقيت به في مؤتمرات فكيف وجدت الفرق بين المؤرخ العربي والمؤرخ الغربي . . ؟

- لا فرق من حيث الطبيعة ، ولكن المؤرخ الغربي قد تطور بحكم تطور مجتمعه ولا سيما في الايام الاخيرة ، وسيتطور في المستقبل كذلك . . ولقد اعطى هذا المجتمع للفيلسوف وللكاتب وللمؤرخ حرية البحث في اي موضوع ، ما لم يكن فيه شذوذ في الاخلاق وتهجم مؤذ على حرية الآخرين . فللمؤرخ الغربي ان يكتب ضمن هذه الحرية الواسعة ما يشاء ، ويقول ما يريد ، فظهرت نقود للتوراة وللاناجيل ، وبحوث عن المسيح وامثال ذلك في مختلف الاتجاهات ، دون ان تثير عاصفة من الهياج !

* وماذا اعطت لهم هذه (الحرية) ؟

- انت تجد للمؤرخين مختلف الاتجاهات والاراء في تفسير التاريخ من اساتذة جامعيين الى مؤرخين غير جامعيين .

وقد يحدث كتاب التاريخ : ضجة ، ولكنه لايحدث هياجا !

ولا مطالبة بسجن . . وباحراق الكتاب !

اما المؤرخ العربي ، فالعلامة جواد علي يصفه بحسب تجربته :

ـ تحسن حاله في الاسلوب وفي تفسير التاريخ ، ولكنه مازال مرتبطا برأي محيطه وبوجوب مراعاة شعور الرأي العام ، بتقديس التاريخ . .

وبعد يادكتور . . . ؟

ـ ان معظم المؤرخين العرب هم اساتذة في الجامعة ، وكتبهم جامعية ، موجهة الى الطلاب ، فهي « مراجع » . . واسلوب كتب المراجع يختلف عن اسلوب الكتب الموجهة للرأي العام ولا سيما للطبقة التي تريد شيئا جديداً في تفسير التاريخ !

ولابد من . . يادكتور ؟

ـ ان الزمان سيتطور ، فتظهر في عالمنا العربي . . مدارس فلسفية في كتابة التاريخ ، ونزعات (حرة) في التفسير .

. . ومما اذكره من حديث العلامة جواد علي في السبعينات ، حيث احتفظ له باكثر من مائة صفحة ، انه قال : وتجابه المؤرخ في الوطن العربي صعوبة كبيرة في التعبير عن رأيه في الموضوعات الحساسة التي تثير الشعور والعواطف . ومع هذا فقد خفت حدة هذه العواطف كثيراً بعامل التهذيب والتثقيف وتطور البيئة والزمن ، فقد حمل الرأي العام في مصر على الشيخ محمد عبده وكفره بعضهم لانه تحدث عن

امور كانت شائكة بالنسبة لذلك الوقت ، اما اليوم فلا يعبأ بها اي احد . . وعلى الصعيد العالمي ، اثارت كتابات فولتير معاصريه ، ولا سيما بما حوته من افكار شاملة وقلب للرواية اليهودية عن الماضي ، ووسع حدود التاريخ الزمانيـة والمكانيـة ، واوجد نـوعاً جـديداً من الوحدة في صورة الماضي ، وذلك بقضائه على التمييـز بين التـاريخ الديني وغير الديني ، واقراره الاسباب الانسانية والطبيعية للحوادث دون غيرها من الاسباب . . واثار كتاب (التأملات الفلسفية في تاريخ الانسانية) لاسحق ايسلين السويسري ، ضجة في الاوساط الثقافية وكان قد قال انِ المرشد الحق للانسان انما هو العقل الذي يقاوم ويحد من اغراء الحواس والعواطف والخيال . . وقد نظر جوهان كوتغريد هردر الى التاريخ نظرة تعارض نظرة فولتير اليه ، انه سخر من فلسفة فولتير التاريخية التي عجزت عن فهم رواية التوراة عن نشأة الانسان بسبب كرهها للامور العجيبة المخبوءة ودافع عن الدين وذهب الى ان التاريخ كما في الطبيعة ، تسير الحوادث وفق قوانين ثابتـة وان تطور التاريخ يعتمد على التطور الذي يقع في الطبيعة ، وجاء بعده علماء اخرون فلسفوا التاريخ وبينوا رأيهم فيه . ومنهم (دكيبن) في انكلترا وهيغل في المانيا . . وغيرهما . . ان العلامة جواد علي يستعرض هذا التاريخ لغاية واحدة : (انه لايعرف : في الوقت الحاضر ، مؤرخا في الوطن العربي فلسف تاريخه على نمط المؤرخين العالميين من اصحاب

المدارس الخاصة بفلسفة التاريخ) . . لكنه يعترف : نعم ان هناك دعوات واتجاهات في كتابة التاريخ !

صعوباتي . . !

وقلت له . . كيف وجدت صعوبات البحث عن التـاريخ ، مادمت تتحدث عن صعوبات المؤرخ العربي ، وكان العلامة جواد علي لايجيب بشكل مباشر وقال : (انت تعرف مباشرتي من السياق العام) وحدثني عن هذا السياق عن طريق . . (الوثيقة) : ـ لاتاريخ بـلا وثائق ، والوثائق بعد اصناف : كتب ، ابنية ، اثـار ، سجلات ، معاهدات واتفاقيات ، وروايات شفوية . . وللدولة قوانين بالنسبة الى الوثائق الحديثة الخطيرة والتي تؤثر في السمعة والسلوك فكانت لاتجيز نشر شيء مؤثر الا بعد مرور جيل عليه ، ثم قصرت المدة الى ثلاثين عـاما على مرور الحـادثة ، او اكـثر او اقل بحسب الـدولـة المعنيـة وقوانينها . . وصعوبات المؤرخ من ناحية الوثائق ، تكمن في دراسة الوثائق وفهم محتوياتها وتحليلها فقد تكون موضوعة . . مصنوعة !

هذا بالنسبة لوثائق هذا اليوم !

اما بالنسبة للوثائق القديمة ، فان مجال الوضع يختلف بحسب الموضوع لاسيما في تاريخ الرأي والمذاهب والفرق ففي هذه الناحية مجال واسع لاستعمـال الرأي والنقـد ودراسة الاسـاليب الانشائيـة

والتعبيرية بالنسبة لذلك الوقت !

وحدثني فيما مضى عن العلم في (الوثيقة) :

- تقابل لفظة الوثيقة . . لفظة (document) في الانكليزية المشتقة من اصل لاتيني هو (dacere) - بمعنى يعلم - فهي لدى المؤرخ السند الذي يعتمد عليه في تدوينه للتاريخ . . . والوثيقة اما ان تكون مكتوبة كالقوانين والشرائع او غير مكتوبة كقطع الاخشاب والمعادن والاحجار . . او بمعنى كل مادة يمكن ان يستنبط منها تاريخ كالذي يعمل به علماء الاثار . . وفي زماننا تعددت الوثائق وتعدد الاستخدام في اغراضها بفضل العلم والتقنية وتطور الوعي الفكري ، واضيفت وثائق جديدة الى وثائق الامس كمحاضر جلسات الدولة او المجالس النيابية او الافلام السينمائية والمذكرات الشخصية والمقابلات الشخصية وتقارير المراسلين في الصحافة ، واذكر في هذا المجال ان العلامة جواد علي قال لي قبل عشر سنوات : ان مما يؤسف له هو ان الامور السرية لا يسمح في العادة لاحد بالوقوف عليها الا بعد امد طويل تعينه الدولة بعد خمسين سنة او اقل من ذلك حسب قرارات الدولة ، لما لها من علاقات بالاحياء فقد تسيء اليهم ، وقد تسيء الى بعض الدول حين نشرها في هذه الظروف .

حكمتي المستخلصة من كتابة التاريخ . . !

واخترق الافاق في كتب الماضي وصعد الى سلم دور الكتب بأوامر او بغير اوامر ، فماذا اكتشف في كتب الوثائق . . كان يكتشف او ربما اكتشف ان ثقته ببعض الوثائق تتضعضع . . والعلامة جواد علي يبدأ بهذه الحكاية بأسلوب الرمز :

- حكمتي (التي بحثتها في الوثائق وفي غير الوثائق) هي التجارب النافعة العملية التي يستخلصها الانسان بنفسه وبتجارب غيره ، وقد كانت الحكمة في نظر من تقدم علينا : الامثال وفي الكتب المقدسة اشارة الى ضرب الامثال على سبيل الحكمة ، بل عدت الحكمة المعرفة بالامثال ، ولكن الانسان لا يسير وفق قوانين الحكمة ، والتعقل وانما وفق فطرته وما جبل عليه من جبلة مثل عوامل الوراثة والجينات والكروموسومات والبيئة . ومن هنا هو ريشة في كف هذه العوامل لا تؤثر به الحكمة ولا الامثال . . والحكمة في الواقع : العمل على تخفيف انجراف الانسان لعواطفه حتى يمسك بنفسه ويصقل ما به من موروث الاجيال الماضية والا بطلت الغاية من التهذيب والتعليم .

والانسان في نظر الدكتور جواد علي في هذه (الحكمة) التي قرأها في كتب الحكمة هو : - حر مختار ولكنه من ناحية اخرى ، مسير

الى حد ما وعلى العاقل التوفيق بين الارادة وبين التقييد ، بين الحرية وبين التسيير .

* هل كنت دكتور ، في هذه النظرية (بين الحرية وبين التسيير) نكتب او تدوّن التاريخ ، أو هل صدف ان (وقعت) في او تحت تأثير هذا المبدأ ؟

- انا بالذات كنت اشعر احيانا اني مدفوع الى عمل عملته من دون تفكير ، ولو فكرت فيه لما عملته . . فعلته بوحي باطني يوحي الي به ، على حين اني اندم حين ارجع الى تفكيري فكأن في الانسان قوة غير قوة العقل تدفعه على القيام بعمل لايحب صدوره منه وهو مايسمى عند البعض بالشيطان وهذا الشيطان المغري هو الذي يغري بالمجرمين على العودة الى عمل الجرم ذاته . . . ودراسته من موضوع علم النفس وانا لست من رجال هذا العلم ويا للاسف .

ان هذا الذي يشكو منه العلامة جواد علي كان يشكو منه ايضا اسلافنا المؤرخون القدامى ، والظاهر انه مرض قديم ابتليت به طائفة المؤرخين اللامعين في التاريخ ، وهؤلاء المؤرخون كانوا دائما يصطدمون بجدار الضمير حينما يؤرخون واقعا يعايشونه بالحال مما حمل العديد من الناس على الشك في صحة التاريخ . . وقد قيل ان احد المؤرخين الانكليز القى بمؤلفاته في النار . . حين رأى حريقا وهو في بيته فلما نزل ليراه وليبحث عن سبب حدوثه وسأل الناس وجدهم



جواد علي ملتحقاً بثورة مايس الوطنية سنة ١٩٤١

يختلفون في وصفه وفي تفسيره فحنق على التاريخ وقال : ان تاريخا يكتب على مثل هذه الروايات لايكون تاريخا . . وقد الف السنحاوي كتابا في الرد على من ذم التاريخ دعاه : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، وذم التاريخ هو سبب هذا الذي نسب الى التاريخ ويورد العلامة جواد علي امثلة في اقوال ائمة التاريخ : على ازدرائهم شبهات بعض الاخباريين واختلاقهم الحوادث في نسج التاريخ .

* * *

ومذهب الدكتور جواد علي في النظر الى التاريخ يلتقي باكثر من وشيجة بمذهب كارل بيكر (ولد سنة ۱۸۷۳ في ريف الولايات المتحدة) القائل بان « كل انسان مؤرخ » وهو المذهب الذي يذهب الى ان ما يفعله المؤرخ هو مايفعله الانسان في تصريف شؤونه العادية . . فالرجل حين يهم بعمل ما يستحضر شيئا من الماضي يدمجه في حاضره ليسترشد به وفي نفس الوقت يدمج ايضا شيئا من المستقبل المتوقع في حاضره فالحاضر وهو الواقع في رأي بيكر يتكون دائما من ماض وحاضر ومستقبل .

وبرأيي ايضا فان العلامة جواد علي عندما نظر الى طبيعة التاريخ في العصور الماضية كان يتماثل مع نظرة بيكر الى تلك العصور . . ففي رأي المؤرخ الاميركي ان فلسفة التاريخ مرت بأدوار كان التاريخ في

العصور الوسطى في ايدي اللاهوتيين صورة لتاريخ العالم والانسان تتفق مع التأليف الالهي فلم يحتج اللاهوتيون كثيرا الى الاطلاع على تجارب الامم بالفعل .. وهو في القرن الثامن عشر اداة لاغراض الفلاسفة .. وهو من اوائل القرن التاسع عشر المثال المتعالي يتحقق .. وهو في عهدنا الحاضر ما هو الا التاريخ : تعيين نظام لتعاقب الاشياء في الزمان .

التاريخ ليس بعلم !

كيف نفلسف مذهب الدكتور جواد علي في هذا (التاريخ) الذي كان (بيكر) يكتبه ويصرف شؤونه في التأليف ، لنترك (بيكر) فالحديث عن فلسفته يقتضي منا تحليل اهدافه في (المدينة الفاضلة) التي بسط فيها آراءه في فلاسفة القرن الثامن عشر ، وندخل مباشرة الى رؤية علامتنا جواد علي الى المعرفة التاريخية . . . فهو في البداية يرفض ان يكون التاريخ (علما) قائما بذاته بل هو (فرع من فروع المعرفة) التاريخية .. ثم يأتي على المعرفة : - هي متصلة بعضها ببعض متشابكة بحيث يصعب عليك فصل هذا التشابك واذا كان التاريخ في نظري فرعا من فروع المعرفة فهو له صلة بكل فروع المعارف كما ان له صلة بالعلوم التي هي معارف منظمة ومنسقة مبنية على المشاهدة والتجارب وعلى الحواس ونتائج التجارب المسلم بها والتي لاجدال في

قوانينها في الازمنة القائمة على الاقل . فالتاريخ اذن ليس بعلم كما يذهب الدكتور جواد علي لان التاريخ :

- لايركن الى قوانين منسقة وتجارب مستنبطة مسلم بها ، وهذه حاصل فقه حواس وزبدة تجارب عديدة ، بينما عماد المعرفة على المشاهدة ثم الاجتهاد في فهم الادراك ، ادراك ما ادركه الادراك . . وصلته لذلك قوية بالمعارف لانه مثلها يعتمد على المشاهدات والملاحظات والاجتهاد في الرأي وليس على القوانين التي تتحكم في مسير هذا العالم اي التاريخ وما وراء هذه التسمية من معنى .

الدكتور جواد علي يريد ان يتوصل الى المعادلة التالية :

١ - خلو عنصر « التجربة » في عمل المؤرخ

يقابله : =

٢ - اعتماد المؤرخ على الرأي في اعطاء الاحكام . . والنتيجة التي تحكمها هذه المعادلة :

= مجال الاختلاف في التاريخ يصبح مفتوحا

= وابواب الاجتهاد في تفسير « الحادث » محتملة

ومنطق العلامة جواد علي في هذه المعادلة :

« هذا مؤرخ يفسر « حادثا » معينا له وثائقه وشهوده بتفسير . . وذلك مؤرخ يفسره بشهوده وبوثائقه بتفسير اخر . . وثالث يرى تفسيره ، بوجه يختلف عن التفسيرين

وهكذا » .

وسبب كل ذلك ، اي الغاية التي يقول بها الدكتور جواد علي :

ـ ان مدارك الناس وان كانت من مصدر واحد ومن منبع ثابت هو (العقل) او (الفكر) الا ان مدارك العقول مختلفة فتتباين الاحكام والاجتهادات في الامور التاريخية التي تقبل التفسير بطرق متباينة ، وهذا بوجه عام . . اما مصطلح فلسفة « التاريخ » فيرجعه العلامة جواد علي الى فولتير فهو اول من اخترع هذا المصطلح وقد قصد بـه : عرضاً تحليلياً نقديا او علمياً للتاريخ وبالطبع فان فولتير كان يقصد نوعا من التفكير التاريخي يتقيد فيه المؤرخ بمقاييسه الخاصة بدلا من الاعتماد على ما جاء في الكتب القديمة .

اجتهادات في : ان التاريخ علم

العلامة جواد علي توصل في النهاية الى ان التاريخ (ليس بعلم) وكان يقول لي قبل سنوات : « ان من العلماء ولا سيما غير المؤرخين من يرى انه ليس بعلم » وعندما كنت اقول له في الماضي (ان لأهل التاريخ رأيا مناقضا في ذلك) كان يقول : (انهم ـ اي اهل التاريخ ـ يقولون انه علم مثله مثل بقية العلوم) هل هو تناقض في قول العلامة جواد

علي ام هو الرأي الذي يبتعد به عن اصدار حكم في هذه القضية التي بقيت شائكة على صعيد الفهم الاكاديمي . . لكنه يأتي الى اهل التاريخ : فيعرض تصوراتهم في ان (التاريخ علم) :

انهم يرون ان هدف التاريخ : البحث عن تطور الانسانية منذ تكوينها وعن القوانين التي سيرته وتسيره . . ثم هو لايقطع بدراسة الانسان ، بل يتناول بالبحث ايضا كيفية تطور الارض والنبات والحيوان اي الاجسام الحية والاجسام التي لاحياة لها . فهو اذن علم مثل العلوم الصرفة التي يقل فيها عنصر التجربة والمختبر . . وقد ذكر الفيلسوف (وند) ان قوانين التاريخ تختلف عن القوانين الطبيعية ، وانها ليست في درجتها وفي منزلتها ، بينما نرى المؤرخ (برايزك) (ولد سنة ١٨٦٦ وهو استاذ التاريخ وفلسفته في برلين) يضع اربعة وعشرين قانونا في التاريخ ، ويقول انها تسد الباب بوجه من يفرق بين هذه القوانين وبين القوانين الطبيعية ، وطلبت من الدكتور جواد علي أن يعلق على هذه التصورات ، فجاء بقول برايزك : من ان هناك فرقا واضحا بين قواعد يستنبطها

الانسان من الشك والتجربة وسلم بها العقل وبين قوانين يستنبطها الانسان من مجرد التفكير والاجتهاد بدون تجربة وبحث في السببية وفي صلة العلة بالمعلول ، والعلة الاولى لهذا الكون !

اثر المصدر في شخصية الكاتب ؟

هل (المصدر) وثيقة في فلسفة التاريخ ، وما هي قدرة المؤرخ في استخدام المصدر وتنقيته وعلى اي شيء تتوقف قضية (التواتر) في تثبيت الاحداث والاخبار ، وما هي تجربة العلامة جواد علي ومعاناته في الاعتماد على المصادر ، قال : انا في تجربتي اعترف بان لا تاريخ بلا مصادر ، وقال : (سمها وثائق بتعبير احسن) .

فالوثيقة :

- هي المادة الخام للتاريخ .

وقبل ان يبدأ المؤرخ في كتابته يتعين عليه في (رأي الدكتور جواد علي) :

- ان يعمل فنه بالوثيقة ، لفصل الفاسد منه من الصحيح ، وذلك نسبي بالطبع ، بمعنى انه يتوقف على قدرة المؤرخ في ادراك خفايا النقد التاريخي للحوادث وعلى درجة إدراكه لروح الحوادث ، ثم على قدرة المؤرخ في عرضه لما كونه ورسمه في عقله عن ذلك التاريخ ، ومن

هنا تفوق مؤرخ على مؤرخ ، ورجح الناس تاريخا على تاريخ في موضوع واحد !

ومن خلال تجاربه . . (انا اقول من خلال تجاربي في التواريخ) .

ان :

- فهم الوثائق وتحليلها مختبريا هو اثر من شخصية المؤرخ ، ومن قدرته ، وكفاءته في استنباط التاريخ من الوثيقة .

* اذن . . حصة المصادر في كتابتك للتاريخ ؟

- هي حصة تتوقف على اهمية درجة الحادث الذي أعالجه ، فرب حادث اعالج فيه اسانيد عديدة متداخلة وروايات متشابكة فيأخذ مني وقتا ، ورب خبر متواتر تقرأه بطرق وبأوجه متعددة ، ولكنه في الواقع خبر جرى بين الناس حتى اكتسب عندهم : (درجة التواتر) وعلى كل ، فإن المؤرخ او العلامة جواد علي عندما يشير الى (الوثيقة) فانما يريد بذلك : اخبار القارىء بها ، لعله يريد التأكد من صحة ما كتبه او لعله يريد الاستفادة منها . . فالوثيقة كما قلت ، هي المنبع .

* *

يحيرني العلامة جواد علي ، فهو يبكر الى الصمت كلما ناقشته في مظهر صعب من التاريخ وأراه يفلسف الصمت بل يحيله الى قاعدة من قواعد

روحه . . هل هذا الصمت تنين يتجول في اعماقه ام هذه الروح التي تحلق في الشواطىء البعيدة . . الصمت صار حقيقة ، لان الصمت صمت الحياة ، الروحية الباطنية : بكارة وطهارة كما يفهمها الشعراء الروحيون . . او كما مرة هتف بها كيركجورد « هنا ينمو الصمت كما تنيف ظلال ما بعد الظهيرة . . اية نشوة يبعثها في نفسي هذا الصمت الذي يزداد لحظة بعد اخرى » ورجوته ان يصمت الى حديث آتٍ . . !

الفصل السادس

العرب والعراق الأقدم



من المانيا كان يراسل صحف العرب في الثلاثينات

ان هـذا الذي اطمـح فيه ، اطمـح في تطابق وانسجـام بين الكاتب وبين افكاره ، هو ماوجدته جليا في العلامة جواد علي فهو من القلة الذين لايراهنون على شيء ، الا في هذا العلم الذي دفعه الى ان يكتشف : ان المؤرخ ليس عـالة عـلى التاريـخ . وليس وصيا عـلى المحدثات المستقبلات ، فاخذ من الطبـري زهد الـدنيا ، ومن ابن الاثير حكمة الصحابة ، ومن الواقدي ألم المظان ، كان اذن ، هذا المؤرخ الذي ضن بالدنيا ، وضنت بـه الدنيـا لا يكتب بل لاينبس بشيء من الحدثان والطوارق ، الا بما يوحي به عقله والا بما كان العقل فيه شديدا وليس مزاجا ، وكان العقل قويا وليس ترفا في افكاره .

كان يريد ان يقول لتاريخه الخاص : انك ياجواد علي بقيت على مزاج العلم في مقالتك الاولى قبل ستين منصرمات بل يريد ان يقول لتاريخه العام : انك ايها المؤرخ حافـظت على المقـدمات التي كتبهـا السلف المؤرخون في مصنفاتهم . . او كأنما يريد ان يقول لنا جميعا : ان التاريخ رأي وحصافة واجتهاد . . والتفت الي : (انا لا ابالي بما يقال عني) وكان يعني انه اذا قال الحقيقة ، فليصح عليه الصائحون وليقل القائلون قالتهم او اقوالهم ، فالمؤرخ حكيم زمانه ومصلوب في عيونه وقاتل الشر في أعماقه ، قال : (انا اكتب واعرف مـاذا تعني الكتابة) وقد كتب مائة مقالة في تراث العرب على نظرية (الاسـود والابيض) فلم يجرح ضميره ولم يتعب ذاته ، كان تواقاً كابن جني ،

الى البحث عن حرية العرب !

اميل الى الاجتهاد وأنبذ التقليد !

وميل العلامة جواد علي الى الاجتهاد قائم على دراسة وتحليل ظروف الامة ، ونبذه للتقليد قائم على ابتكار شخصية الباحث ، وهذا ما حدث له في السياسة ، ففي الاربعينات كتب يقول : (ولاني حين انتقد الانكليز لايعني اني سأجعل نفسي في جانب اعدائهم) ولماذا كتب بهذا الوضوح فيجيبني -حالا : (منذ وعيت رأيت ان الافضل لنا ان نترك الشرق والغرب وشأنهما) . . وكتب في هذا يوضح : (ان تقليد جهة معينة ، والاتكال عليها خطأ فاحش ، مضر بالمصلحة) واية مصلحة كان يستهدفها : (كنت استهدف المصلحة العامة . . وهذه تقتضي الاعتماد على انفسنا وعلى احوالنا وظروفنا) ولماذا انتهج هذا النهج : (وكما قلت لك اني اكره التقليد) وهل هذا رأي علمك بالتاريخ : (في كل زمان ينبغي ان يتبلور لنا تاريخ مستقل) وربما وجدتك غامضا : (المنطق الحق لم يكن غامضا) ثم نزل الى عمق العصر : (اتعرف اني ادركت هذا الفهم منذ اشتغالي في الصحافة في العشرينات) واراه الان واضحا في هذا السياق : (اتعرف . . اني اكره من يحاكي الاميركان او الانكليز او الالمان ، كما اكره من يحاكي الروس ويقلدهم في اقوالهم ، وينجرف في تيارات القوى الدولية)

وكأنه بهذا اراد ان يجيبني عن سؤال قديم سألته مستفسرا عن عمله الحزبي في شبابه العشريني . (.. واني لذلك أكره المراوغة .. وظروفي جعلتني ان لا انتمي الى كتلة معينة) !

اجتمع بهتلر فاعتقلوه في حركة مايس ١٩٤١

هو ينفي ان يكون (هتلريا) في ثلاثينات افكاره ، بل في اربعيناتها ، وهذا ماتحقق لي اثناء بحثي عن وثائقه السياسية واثناء ما سمعت عن قصته في السياسة من خلانه وزملائه في مقاعد الدراسة الالمانية لكن كيف اتهمته عيون الانكليز في هذه (الهتلرية) والقصة تبدأ كما يرويها لي شهود تلك المرحلة .. من ان العلامة جواد علي كان في المانيا في الثلاثينات يراسل الصحافة العراقية باحداث المخاض الهتلري وبتصاعد المد النازي الذي اخذ في تلك المرحلة يستشري كوباء فكري ساحر ، وكان على هذا المراسل ان ينقل سحر الوباء ، بما هو وبما تتطلبه صحافة الثلاثينات ، فحدث ان ذهب الى مؤتمر (نورنبرك) الذي عقده النازيون في عام ١٩٣٦ في مدينة (نورنبرك) ليغطي احداثه وكانت الصدفة ان يجلس العلامة جواد علي بالقرب من المقعد المخصص لهتلر .. خطب الزعماء النازيون وادلوا بنظريات السياسة والحرب واشعلوا بداية الفتيل .. ولما انفض المؤتمرون امسك المؤرخ العراقي بهتلر ، واجرى معه حديثا مطولا في سياسة المانيا ازاء

(الشرق الاوسط) وكتب ما تحدث به الزعيم النازي في مقالة عنوانها (هتلر كما رأيته) نشرت في جريدة (الطريق) التي كان يصدرها توفيق السمعاني ، وهذه هي القصة التي سمعتها من ألسنة الشهود ، وقلت للعلامة جواد علي ، وما رأيك في ألسنة الشهود وقلت له مارأيك بهذا الماضي بلغة مؤرخ واكد انه (حضر هذا المؤتمر واجتمع بهتلر وسأله اسئلة المرحلة) وقال :

- عدت من المانيا قبل الحرب العالمية الثانية بشهرين ، والتحقت بدورة ضباط الاحتياط الثانيةواعلنت الحرب وانا في الدورة ، تخرجت بدرجة ملازم ثان احتياط . ولما اعلنت الحرب بين العراق والانكليز في شهر مايس ١٩٤١ قدمت طلبا بالتطوع والالتحاق بالجيش لمقاتلة الانكليز والتحقت برتل دجلة وكان مقره (القرنة) وبقيت به الى ان عاد الانكليز الي حالتهم الاولى . وكنت قد كتبت مقالا بعنوان (قضي الامر وزالت الامبراطورية) بجريدة الزمان وقد تلي من اذاعة برلين مرارا ، تلاه (يونس بحري) الذي كان الناس يتلهفون في بادىء الامر لسماع اذاعته بالعربية . . ثم كتبت مقالات اخرى ضد الانكليز ، وكانت نتيجة ذلك ان قبض علي ، وارسلت مع جماعة الى معتقل الفاو ، لاقضي فيه شهر الزواج الثاني . اذ كنت قد تزوجت حديثا ، وقدم وزير المعارف اذ ذاك طلبا الى مجلس الوزراء

لفصلي لمدة خمس سنوات .

وكنت التقط من الدكتور جواد علي بعض ذكريات المعتقل . . وايضا كان يرسل هذه الذكريات بلغة مؤرخ اي انه كان ينتقي احداثه :

- كانت مخصصات الشخص الواحد في المعتقل (٤٥٠) فلساً ، ولما كان من الصعب على ملتزم امرنا تقديم الطعام لنا ، كنا نستلم هذا المبلغ ، حيث اعطيته لاحد الزملاء ، وكان طباخاً باهرا وهو مدرس ، وبذلك امنت لنفسي موضوع الاقامة في المعتقل ، والمعتقل في الواقع لفيف من الناس ، فيهم الشرطي المفصول ، وفيهم اللص المقبوض عليه لتخليص « المتصرفية » من شره ، وفيهم المحامي والاستاذ والصحفي وغير ذلك ، وهو لفيف يصلح ان يكون مختبرا لعالم الاجتماع ، للكتابة عنه . . واتذكر انه حدث شجار في يوم بين معتقلين من مسلك الشرطة على توزيع الوظائف ، ان انتهت القضية بانتصار العراق على الانكليز بمساعدة الالمان !

وكنت اقول للدكتور جواد علي : (انت لم تقدم لي ادلة في نفي الهتلرية عنك) وكان هدفي ان استفز فيه تاريخا مضى ، قال : (كتبت مقالات في تلك الحقبة ضد هتلر) ولماذا كتب الدكتور وباي دافع : (لاسيما حين هاجم هتلر روسية ، مخالفا بذلك التعليمات التي وضعها « برونغ » وهي التعليمات التي تقول ، ان المانيا اذا حاربت على

جبهتين فانها تخسر الحرب واعاد قوله : (ولاني حين انتقد الانكليز لا يعني اني سأجعل نفسي في جانب اعدائهم) .

حاشية !

لابد للمشتبك في تجربة السجن والسياسة ، ان يخرج بتأمل في ذاته وفي ذات الاخرين ، ومن طبيعة المؤرخ ان يصدر رأياً في ذلك يختلف عن اراء الآخـرين . . فهل مـر العلامـة جواد عـلي في هذا (التأمل) كنت اسأله في هذا :

ـ بعد تلك التجربة ارى : ان الذي تخصص بفرع من فروع المعرفة او العلم ، عليه ان يخدم بلاده بزيادة علمه فيه وبتجديد معارفه به دوما وبافساح المجال لغيره بالتوسع في اختصاصه ، وتشجيعه على البحث في فرعه وعدم مقاومته بحس من الحقد والحسد ، فان من صفة الباحث مساعدة النفس على التقدم ومساعدة الغير على الخير ، والخير هنا مساعدته على زيادة علمه وتشجيعه على الابتكار والاختراع .

هجرة العلماء

ورأيت العلامة جواد علي يثير معي مسائل شائكـة ، حسبتها شائكة ، حينما يتحدث عن تأمل العلماء في البلاد العربية ، لكنها في الواقع ، اولكنني كنت اتيقن في هذا الذي يقوله عن حرية العلماء بانه الحق ، والعلماء الـذين يهـاجـرون ويقصـد بهم (الكفـاءات) من

بلدانهم ، انما يهاجـرون في غير الاسبـاب التي تقال في الصحـافـة العربية . . وهو رأى جمعا منهم في اوربا واميركا ، في مناصب رفيعة ، واختلط في افكارهم وهو المؤرخ الذي يرى بعين ويسمع باذن ، وهو الـذي كان في عينـه واذنه يسجـل : حقيقة المؤرخ المنحـازالى وطنه دائما . . . واخيرا اكتشف ، بل قال في نفسه : (لم لا يبتكر علماؤنا شيئا جديدا ، وهل سنبقى عالة على الغير) قلت لـه : (ادخل الى المـوضوع مباشرة) . . (لنعـرف العلل عن ازمة هجـرة اصحاب العقول) قال : عللنا ذلك بعلل وقـررنا في نـدوات مكافحـة تلك العلل ، ولكن الهجرة في البلاد العربية مع ذلك باقية مستمرة . . . وقلت للعلامة جواد علي اريد منك الحقيقة الاولى ، قال : (اثبتت النتائج في كل مرة ان موضوع الهجـرة الى الخارج لايعـود الى راتب ضخم وحياة رتيبة مغـرية ، ولا الى وسـائل تسليـة ورفاه لا تـوجد عندنا ، وانما تعود ، وهنا صمت الدكتور صمتا مغريا احالني الى ان اطالبه بمتابعة حديثه ، فهـو الذي عـودني على ان يعـطيني (الحقيقة كلها) قال : ان من طبع العالم ، الانكباب منذ طفولته على الغريزة المهيمنة عليه . . وهو يريد التبسط بها ، وزيادة معرفتـه بها وانـه في حاجة الى من يساعده على تحقيق هذا الهدف ، والى تهيئة الجوله لتطبيق علمه ولزيادته بالتجارب النظرية والعملية . . ومن هنا يصطدم برئيس دائرته الذي قد لايساعده لاسباب على تحقيق مناله . . ورئيسه اطول

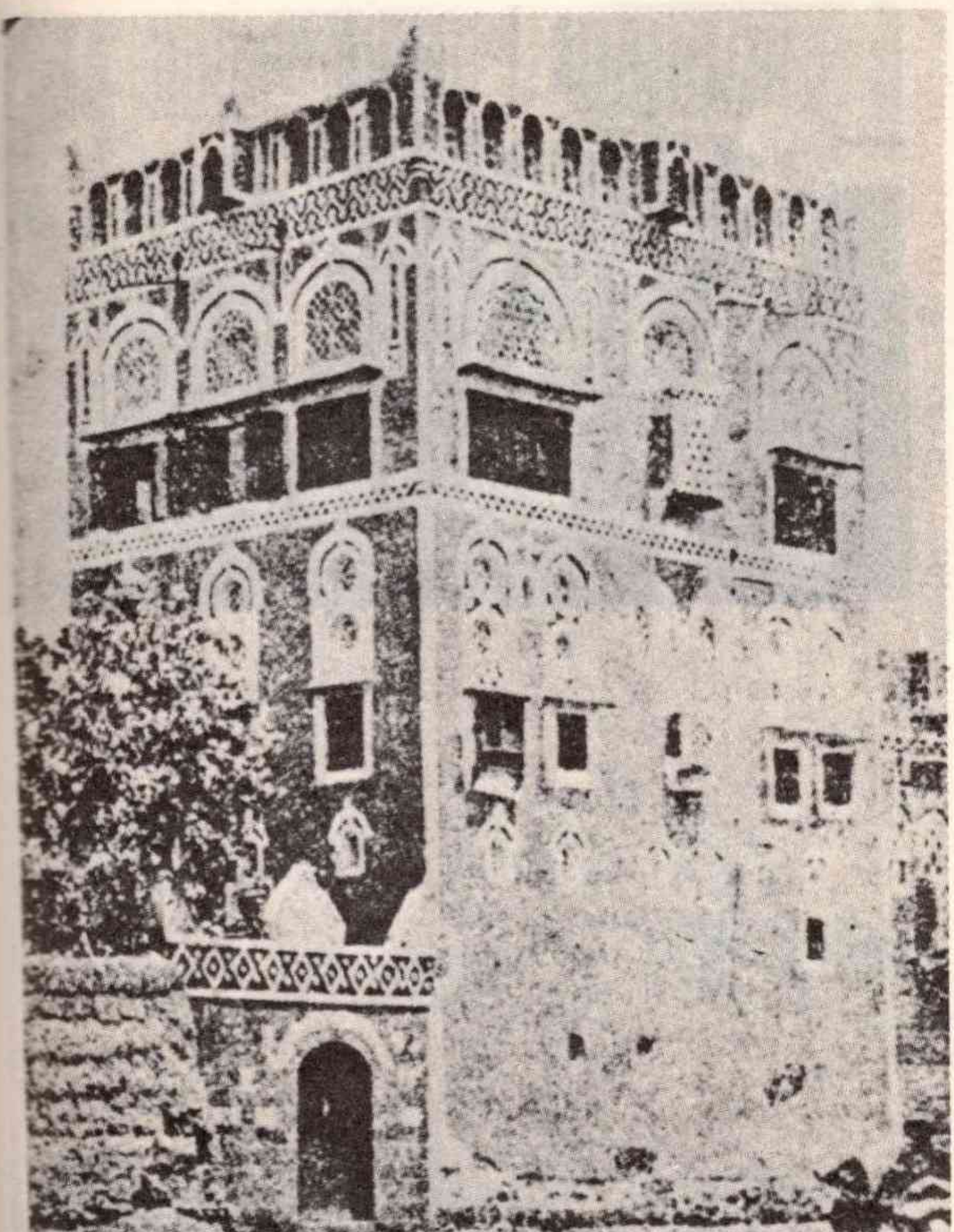
منه لسانا واقوى منه باعا ، واقل منه علماً ، فتظهر عندئذ لديه حالة تجعله يهرب الى مكان قد يساعده في تكوين شخصيته وفي اظهار نفسه . . وانا وجدت في الغرب طائفة كبيرة من علماء البلدان العربية تحدثوا لي هذا الرأي وخرجت منهم باستنتاج : ان موضوع الهجرة ليس هوى ومالا ، وانما تحقيق حرية علمية وشعور بوجود جو يساعده على الظهور . . وقلت للدكتور : هذا بعض الحق فيما ذهب اليه هؤلاء (الكفاءات) ، وفيما تذهب تبريراتهم لكنهم ليسوا مع الحق في (هجراتهم) مهما كانت الاسباب او العقابيل التي ذكروا بعضا منها ، فالعالم الحق مناضل في علمه وينبغي ان يكون في هذه المناضلة شديدا في صراعه مع الاضداد ، ان كانت ثمة اضداد تعترض سبيل اجتهاده ، ونحن لانريد من العالم الا انسانيته ، وان يقدم حجة في هذه الانسانية اقوى من حجة العلم ، وان يقدم جوهر وطنيته اقوى من جوهر (الاكاديمية) وصمت الدكتور هذه المرة صمتا فيه لهفة الى علم وفيه . . لغة !

ماضي العراق : ماضي العرب !

وانتقلت بالدكتور الى الماضي ، نقلة عين المؤرخ الى غريزته ، والماضي غريزة لاتقل شأنا عن غريزة النفس ، فهي الغريزة التي وهبت للعلامة جواد علي ، هذا النفاذ انفاذا الى عالم الحسيات الذي تشكّل فيه العرب ، فيه العراق ، تشكّلا تاريخيا لاتنضب رؤاه في



المطبعي وجواد علي والدكتور كمال السامرائي وميخائيل عواد
في احدى ندوات العلم سنة ١٩٨٤.



ذاكرة المؤرخ الحق ، وهو يذكر مثلا . . (ان الماضي هو المستقبل الذي ننتظره) وان (التراث هو سبيلنا الى هذا الماضي) وعندما يذكر كلّ هذا فانما يريد ان يقول : (نحن ننتمي الى تاريخ) وتتداعى اليه ذاكرته حالا : (انني منذ طفولتي ادركت ان العراق تاريخ) وهو تاريخ كلي ، بمعنى : ان العراق جزء يغلف وجدان امة ، ليس جزءا منفردا ، بل جزءا متداخلا في عصب حساس ، وبمعنى « الارومة المتداخلة » وهنا ادركت العلة في قول الدكتور . . علة الوشائج ، بين تاريخ العراق وتاريخ « ارومته » كما هي علاقة الغصن بشجرة القدر ، هو يرى العلة جغرافيا ، بصفة (العراق بما فيه البادية امتداد طبيعي لجزيرة العرب) وقد عرف ذلك منذ القدم ، وجعلته يسرد هذه الرواية :

ـ ان علماء اليونان جعلوا العراق من اجزاء بلاد العرب كالذي نراه عند (بلتيوس) في كتابه : « التاريخ الطبيعي » وعند غيره من العلماء ، والصلات كانت قديمة قدم العرب انفسهم بين العراق وبين جزيرة العرب وأقول : جزيرة العرب لأنها التسمية التي اطلقها علماء الجغرافيا العرب وغيرهم على بلاد العرب . . !

* لكن رأيت كتابا بلدانيين يقولون بمصطلح (شبه جزيرة العرب) ؟

ـ ان هذا المصطلح وان كان صحيحا من حيث الواقع ، لكنه

مصطلح أعجمي غير عربي !

* ورأيت كتابا بلدانيين ، ايضا ، يقولون بعزلة (جزيرة العرب) ؟

- بعض الكتاب ارادوا بذلك ان يقرروا : ان جزيرة العرب لم تساهم في تطوير التاريخ البشري ، وهم يخطئون في هذا الرأي . . اذ كانت الاسفار بين اجزاء الجزيرة وبين العراق متواصلة ، وان كانت بوسائل قديمة على ظهور الحيوانات او على ظهور سفن ذلك الوقت التي تسير بالشراع وبالتجديف . . وهذه الأسفار تعبر عن (حركة) وكانت الجزيرة ذات منافذ الى شعوب العالم . . وانا في ابحاثي اكتشفت . . ان لا عزلة بين الجزيرة وبين العالم !

الصلة الثقافية الاقوى !

والثقافة أعلى مظاهر الارومة ، فكيف وجدها العلامة جواد علي . . بين العراق وجزيرة العرب . . (كنت اسأله عن العراق القديم - عراق ماقبل الأسلام) قال : (وجدتها في اللهجات) . . وعلماء اللغة يقولون ، ان اللهجات قوالب تمثل تفكير الانسان ، ويطرح الدكتور اطروحته : (. . فالاله « سين » مثلا وهو اله حضرمي هو اله عراقي كذلك . . قد تكون عبادته قد انتقلت من العراق الى حضرموت) وهل يستخدم الدكتور (قد) بمعنى التشكيك او بمعنى الحيرة : (لا) ان (قد) كنت اقصد بها التحقيق واؤكد على ذلك واقول من العراق ، لان عبادة سين بالعراق اقدم من ظهور

عبادته في حضرموت ، كما هو مدون في النصوص وقد يكون العكس ، ومهما كان الامر ، فان ظهور عبادة هذا « الاله » في حضرموت والعراق هو دليل اوردناه مثلا على الاتصال الثقافي . . وطلبت من الدكتور ، الدليل الاخر ، قال (خذ الاله « عشتر » الاله المعتبر عند العرب الجنوبيين هو الاله (عشتار) في العراق ، ان هذا التعامل في الحياة الدينية المشتركة بين العراق والجزيرة قديم ، كان موجودا قبل يوم ظهور الكتاب والتدوين .

وقدم لي دليله الاخر ـ حاول (امرؤ القيس) المذكور في نص النمارة والمتوفي سنة ٣٢٨ للميلاد الوصول الى العربية الجنوبية لضمها الى مملكة (كل العرب) فوصل الى نجران في ايام ملكها « شهر » ونجد في نصوص حديثة اخبار توغل الملك « شهر يهرعش » اليمني في شرقي جزيرة العراق واستيلائه على القطيف ، وايقاعه الخسائر بالفرس حينما حاول السير من (ارض تنوخ) الى فارس . . وكانت هذه خطة منه في توحيد الجزيرة . . وللدكتور ادلة تاريخية اخرى في هذه الصلات الثقافية بين العراق والجزيرة استنتجها في (المساند) اي في كتابات العرب الجنوبيين : ان ملوك اليمن كانوا يرسلون رسلهم الى الغساسنة والمناذرة والى المشايخ يدعونهم لزيارتهم ولحضور المناسبات كالافراح ، كما كانوا يتراسلون لمعالجة المشاكل السياسية ، اولعقد احلاف ، وكان اخر خبر يصل الينا ، هو وفد ارسله الملك ذو

نواس « ملك القبائل » الى الحيرة لطلب العون في اخراج الحبش من اليمن . . هذه ادلتي في نفي عزلة عرب ماقبل الاسلام جغرافيا وثقافيا . . ولكن وحدة العرب التي رأينا بوادرها لم تتحقق الا في الاسلام .

العراق الاقدم !

ونذهب الى العراق الاقدم فنجد هذا الاهتمام الكبير في دراسة اثاره ، وبخاصة عصريه : السومري والبابلي . . ماسبب هذا الاهتمام في تاريخ العراق الاقدم ... وما الذي اكتشفه الدكتور جواد علي !

ـ كان ذلك بسبب التوراة وماجاء فيها عن الاشوريين والبابليين ، وما ورد فيها عن العراق من ذكر ، حمل الناس على البحث عن موطن الطوفان وموضعه ، وعن بابل الموضع الذي اختلفت فيه الالسنة ، وعن مواطن السبي في العراق ، الى غير ذلك مما يرد في (العهد القديم) عن العراق ، وقد انتقلت هذه الاخبار الى النصرانية واخذوا بها ، وهذا ما حملهم على زيارة العراق للوقوف على المواضع الواردة في التوراة ، ثم لم يكتفوا بذلك بل شجعوا علماء الاثار وتبرعوا لهم بالمال للتنقيب في المواضع العراقية الاثارية لدراستها ومقارنة ماورد فيها بما ورد عنها في التوراة ، ومن هنا كان التنقيب في العراق وفي مصر

وفي بلاد الشام ، وبضمن ذلك فلسطين ، اقدم من التنقيب الذي جرى في البلاد الاخرى لصلة هذه المواضع بالكتب المقدسة ووقوع حوادث توراتية في هذه المواضع (وكنت اعقب على قول الدكتور جواد علي ، بان هؤلاء العلماء الاثاريين او المؤرخين ، او الرحالة ، الذين جاءوا الى العراق باسم هذه النصوص التوراتية ماجاءوا الا ليسرقوا تاريخا وليزوروا تاريخاً ويستبدلوا تاريخاً بتاريخ ، ماجاءوا ليقدموا في كشوفاتهم الى العالم ، تاريخا كما هو لاهله ولبناته الحقيقيين ، وانما ليرجعوا بابل واشور وما بينهما من حضارات اصيلة الى شعب الشتات ، تنفيسا لعقد دينية وانهيارات نفسية ابتلي بها شعب الشتات ، ولهذا ينبغي ان ننبه الى ان جميع من كتب من هؤلاء عن العراق الاقدم ، الذين دخلوا العراق باقنعة القنصليات الاجنبية او بواسطة الارساليات التبشيرية ، منذ رحلة (سبستياني - ١٦٢٣ - ١٦٨٩) او (رحلة فنشنسو - ١٩٥٦) او (رحلة بنيامين التطيلي - المزعومة) كانوا يكتبون بوحي نصي من التوراة وهو الوحي الذي يقوم على عقدة الثأر من حضارة اشور ، الحضارة العراقية الاصيلة . . ؟

السؤال القديم !

قرأ الف كتاب عن (الجزيرة العربية) بل فحص الف كتاب في موقع الجزيرة واثارها وما قيل في تواريخها ، وقلت للعلامة جواد علي :

انت حضرت في كل هذه الكتب ، وهمشتها وسلكت فيها ناقدا وباحثا ومعلقا ومقارنا فهل توصلت الى حل مقنع للسؤال القديم الذي يقول : ان الجزيرة العربية كانت المصدر الاول الذي انطلقت منه الموجات البشرية الى المحيط العام ، قال وهو يختصر الف رأي : (ان من غير الممكن التوصل في الوقت الحاضر الى تشخيص الوطن الذي نبت فيه الساميون . .)

* والعلماء قالوا بان الوطن الاول هو الجزيرة العربية اي ان الساميين كانوا هناك ينبتون . . ؟

ـ كل مارأوه وما ذكروه كان يقوم على : فرضيات وتصورات واحتمالات ، وهي لا تفيد علما ولا تكون حكما . . وما لم يرد نص قديم بذلك ، فليس من العلم الجزم بتعيين ذلك الوطن سواء اكان في العراق ام في جزيرة العرب .

* ولا بد يادكتور من ان تبدي رأيا علميا في ذلك . . ؟

ـ اذا اردت هذا الرأي العلمي ، فانه لابد من وضع خرائط باللهجات السامية تعين وتشخص المواطن التي ظهرت فيها . . ومن دراسة خصائص ومزايا هذه اللهجات بدقة ، نقف على درجة هذا الاتصال ، وخصائص ومزايا هذه الشعوب من الناحية (الانثروبولوجية) وغير ذلك . . والمعروف في هذا اليوم ، ان اللهجات السامية قد عثر عليها في العراق وفي بلاد الشام وفي الجزيرة ،

حيث عثر أيضاً على كتابات بالفينيقية ، كما عثر على نصوص سامية .

* ومزاجك العلمي الى اي وطن نبت فيه (الساميون) ؟

- انا لا اتعصب في تشخيص هذا الوطن ، فكل هذه الأوطان هي اوطاني ، . وليس من باب العلم ، التعصب في العلم فان التعصب بجميع انواعه يعمي القلوب والابصار . وارجو ان اكون بعيدا عنه !

وقلت للدكتور :

انت على حق في هذا البعد عن التعصب ، فهذه حرفتك الاكاديمية في منهج التاريخ ، كما انت تفهم التاريخ ، لكنني ارى ان يكون لنا تعصب في العلم ، حين يمس جوهر الغلاف الحقيقي للتاريخ وأرى ايضا : ان الذين شيعوا ان العرب جاءوا الى العراق عن طريق الجزيرة العربية كانوا يطمسون حقيقة : ان العراق بلد عربي في تكونه الانثروبولوجي والبيئي والتاريخي ، وكانوا يدعمون اراءهم من ان السومرية هي البذرة الحضارية الاولى التي نشأت في العراق ، وان هؤلاء الاقوام السومريين كانوا من اصل اسيوي بعيد . . كانوا يقولون مقولاتهم بوحي توراتي ، مع ان السومريين انفسهم ، كانوا يقولون : نحن لم نكن الاصل في هذا البلد ، وانما نحن (ورثة مدنية عريقة) كان التوراتيون وكان المستشرقون يشيعون الخطأ بمؤسساتهم العريقة والصاخبة ، وكانوا يبذرون شيئا واحدا . ان العرب امم . . وخير

اقوالهم : ان العرب امة تبلورت في الاسلام ، وان العراق تمائل الى العروبة في اسلام الجزيرة وكانوا في حججهم التزويرية ينطلقون من وهم حضاري عاشوه ، بل تخيلوه في تعصب العرق الابيض !

الفصل السابع

معالجة التاريخ بروح العصر !

(نص قديم سبق وان نشر في مجلة آفاق عربية - ١٩٨٤)

يعالج العلامة الدكتور جواد علي في هذا الفصل السابع ، المسائل الجوهرية التي طرحت على صعيد مناقشة التاريخ ، وهو يعالجها بوعي من اداته ومنهجه ، فيما اكتسبه من خبرة في الدراسة والعلم والجدل مع ذات الكتب والدراسات ، وهي حصيلة فكرية عقلية أضيفت الى تجربة الفكر التأريخي العربي المعاصر . . فمن أين تنطلق . . ؟

اعادة كتابة التاريخ بين المنهج والوسيلة

* ساد الاعتقاد في الربع الاخير من هذا القرن ، بأن اكثر الوسائل والمناهج اصالة في اعادة كتابة التاريخ ، ذلك الجهد الجماعي في تأليف التاريخ العام والخاص . . . فأين يضع الدكتور رأيه في هذا الاتجاه !

ـ للكتابة الجماعية ، اي الكتابة التي يشترك في تدوينها اكثر من مؤلف واحد ، مزايا وسمات مميزة ولا شك ، ففيها يكون عنصر التخصص في تدوين الفصول ، او اجزاء الكتاب ، ان كان الكتاب كبيراً أو مؤلفاً من جملة اجزاء ، كمثل الكتب التي تؤلف في حياة أمة ، من بدء ظهورها في التاريخ الىيومناهذا ، ومثل الكتب التي تؤلف في حياة أمة ، من بدء ظهورها في التاريخ الى يومنا هذا ، ومثل الكتب التي تؤلف في تأريخ العالم ، من أيام ماقبل التاريخ الى هذا الوقت .

فمن الصواب في مثل هذه التآليف العامة ان تكـون مدونـة بأقـلام مؤرخين ذوي اختصاص ، في الموضوعات التي سيكتب فيها ، والتي تكوّن هيكل الكتاب ، لأنها تتكون من حقول معرفة متنوعة ، ومن اختصاصات من الصعب ان يلم بهـا مؤرخ واحـد . فمن اختص بالتأريخ الحديث وشغل نفسه به وبجزئياته وتفاصيله ، يصعب عليه الالمام بتاريخ ماقبل التاريـخ ، او بالتـاريخ القـديم ، وان يتعرض للتطور الذي حدث في هذه الادوار ، وبالتغييرات البارزة التي غيرت مجرى الحياة البشريَة ، وقدمت الانسانية نحو الأمام ، ولا تزال تدفع بها سنة التطور نحو خلق قيم مثلية جديدة . .

* دكتور . . في نقل النظرية الى ميدان التطبيق . . !

ـ ان يعهـد الى جملة علماء عند تـأليف الكتب ذات الطبيعـة العامة ، مثل كتب الفنون ، وكتب تطور العلوم وظهور الحضارات واختصاصاتها . . ذلك ليكون العرض بهـذه الطريقـة بأيـدي علماء يعرفون روح وجوهر مايعالجونه ، وخصائص الادوار التي يكتبـون عنها ، عن علم عميق بها لا يمكن ان يضاهيه فيه المؤرخ العام .

* هل حقق هذا الميدان قياساً ايجابياً في أثر التأليف الجماعي ؟

ـ نستطيع ان ندخل الموسوعات في هذا البـاب ، مثل دائـرة المعارف الاسلامية ، ودائرة المعـارف البريـطانية ومـوسوعـة « باولي وبزوفا » في التاريخ القديم ، وموسوعة الكتاب المقدس وأمثالها في هذا

العمل الجماعي . ان توزيع المواد على اصحاب الاختصاص والعلماء المتبحرين الذين يشرحون شرحاً مركزاً ووجيزاً غير مخل بالمادة ، يُمكن من لا اختصاص له من الناس من الاستفادة منها ، وهذا هو ما يحدث في الوقت الحاضر .

* دكتور.. هل ظهر تطور في نهج الموسوعات الحديثة عما كانت عليه في القرن الثامن عشر..!

ـ نعم ، بعد ان تبدلت وتوسعت في آفاقها واختلف طابعها عما كانت عليها ايام الموسوعة التي تعاون على اخراجها : (ديدرو) وعدد من الفلاسفة والمؤرخين باللغة الفرنسية والتي تناولت تطور العلوم والفنون والاخلاقيات ، وأيام الموسوعة الالمانية التي ظهرت في المانيا (١٨١٨ ـ ١٨٩٠ م) عن الفنون والعلوم والتي خلفتها الموسوعة المعروفة باسم (بروكهوس) ومثل الموسوعة البريطانية (Britanica Encyclopedia) والموسوعة الفرنسية المعروفة باسم « الموسوعة الكبيرة » : (l yrande enclopidie) او معجم لاروس والموسوعة الايطالية والاسبانية والروسية وغيرها ، فهي نتيجة جهود عشرات من الاختصاصيين ، كتب كل واحد منهم حسب تخصصه ، فصارت مرجعاً نافعاً للعلماء وغيرهم في الوقوف على ما ابدعه العقل الانساني من انتاج مبدع وعقل خلاق . .



* ودائرة المعارف الاسلامية اين موقعها . . ؟

- هي من المراجع المهمة في التاريخ الاسلامي ، وقد طبعت عدة طبعات ، وروعي في الأونة الاخيرة مبدأ اشراك جماعة من المتخصصين المسلمين في تدوينها ، وجدير بأن يواصل تعريبها ، ففي البلاد العربية امكانية مادية وعلمية كافية للتعريب ، كما ان من الواجب على البلاد العربية والاسلامية ، العمل على اخراج موسوعة خاصة بها ، يدونها العلماء المسلمون وغيرهم حسب الاختصاص ، لتكون حاصل جهد الاسلام وقدراته على مجاراة الغير في ميدان التحديد العقلي والانتاج . .

* دكتور . . يعني انك تميل الى التدوين الجماعي . . !

- ليست هناك مفاضلة . وما ذكرته من مزايا (المشاركة الجماعية في كتابة التاريخ) في حقل الميادين العامة ، لايعني ان من غير الممكن على المؤرخين الاجادة في تدوين التواريخ العامة ، فلو قلت هذا ، لكنت مبالغاً في قولي . . فهذا (ادورد كيبن) يكتب عن « افول وسقوط الامبراطورية الرومانية » كتاباً مازال على الرغم من مرور زمن عليه ، مرجعاً للعلماء . . وهذا (مومزن) يكتب عن تاريخ « الرومان » كتاباً كبيراً في اهميته . . أضف الى ذلك ، ان المؤرخ الالماني (دلبروك) كتب عن تاريخ العالم ، كتاباً مازال يراجع ، وان لم يكن في درجة التواريخ المشتركة من حيث التفريعات والشمول ،

والدخول في نقد الحوادث . . وكذلك فعل (دبنوف) و (دنيبور) و (د . دورانت) و (بروكلمن) و (د . فيليب حتي) . .

نظرة . . على أخطاء المؤرخين العرب القدامى

* دكتور . . في السياق التاريخي ، كيف نحلل أخطاء المؤرخين العرب القدامى ، بنظرة موضوعية . . ؟

ـ نسبة الأخطاء الفكرية والعلمية الى المؤرخين العرب ، عمل جائر ، وقول فيه اجحاف ، فالمؤرخ هو مثل غيره من الناس بما فيهم العلماء ، متأثرون بمحيطهم وبيئتهم ، ولكل زمان ومكان ظروف وعقلية ، فلا يجوز لاناس مثلنا أن نرمي المتقدمين علينا بالوقوع في خطأ . .

* سبب هذه الظاهرة . . ؟

ـ لأن زماننا يختلف عن زمانهم . . وفلسفتنا تختلف عن فلسفتهم . . ونظرة الماضين الى الدنيا والحياة تختلف عن نظرتنا إليها . . كما أن نظرة من سيأتي بعدنا عنا ستختلف عن نظرتنا ، وسيرموننا بنفس ما نرمي به المتقدمين علينا من نعوت وأوصاف . .

* كيف نستدل . . فيما ظهر . . ؟

ـ انه ، إذا ما رأينا المؤرخين العرب يروون الاساطير والخرافات عن الامم الخالية والقرون البالية ، وينسبون لهم العمر الطويل أو ينصب تاريخهم على الخلفاء والملوك والسلاطين ، فمرد ذلك انهم عزوا

كل الأمور لهم ، ونسبوا عظائم الأحداث لرغبة رجل وأمره وقراره الذي اتخذه بحرية ، وكأنه لاوجود لضغط أو لظروف محيطة من سياسة العاديين الذين كونوا الجماهير العريضة ، فكان كثير من هؤلاء المؤرخين لايولونهم اهتماماً الا عندما يتعلق الأمر بعلاقتهم بالحكام ، وتدل التسميات التي يطلقونها عليهم على مدى الامتهان والازدراء الذي يكنونه لهم ، مثل (الغوغاء) والأوباش ، و (السفلة) ، كما اعتبروا تحركات هؤلاء فتنة حتى لو كانت لدفع ظلم أو رفع حيف وسمّوا زعماءها باسم (الخبيث) و (المارق) . .

* ما أسباب هذا التباين ولمن نرجعها . . ؟

ـ أولاً ، لأن مفاهيم التاريخ في أيامهم تختلف عن مفاهيم التاريخ عندنا في هذا العصر . .

ـ وثانياً ، لم تكن الجماهير يومذاك تدير الدولة إنما كان يديرها الملوك والسلاطين والحكام ، ليس في البلاد العربية وحدها أو في البلاد الاسلامية حسب وانما في كل دنيا ذلك الوقت .

جدل النقد في حكم الوثائق

* دكتور . . لنورد نماذج من الانتقاد التي عثرت عليها في كتب المؤرخين القدامى ، التي أصبحت في حكم الوثائق . . !

في ضوء نظرته للتاريخ الاسلامي قال :

ـ انتقد (ابن الاثير) الطبريّ في أمور معقولة ، ومن أمور التاريخ ، وقد عاش ابن الاثير بعد الطبري كما هو معلوم ، وانتقد (ابن خلدون) الذي عاش بعد ابن الاثير الطبري ، وانتقد من جاء بعد ابن خلدون ، ابن خلدون ، على بعض آرائه التي دوّنها في المقدمة ولكنه لم يعمل بموجبها في تاريخه الذي وضعه بعد المقدمة ، كما انه لم ينج من الخطأ الذي اعتبر أن الطبري قد وقع به .

ونحن إذا استعرضنا قائمة المؤرخين منذ أيام المؤرخ « هيرودوتس » الذي انتقد من عاش قبله من المؤرخين لآرائهم البعيدة عن العقل ، والذي أراد ابعاد الاساطير عن العقل ، فانه يقع هو نفسه في هذا الخطأ ، فيروي الخرافات والقصص اللامعقول ، ثم يرمي من جاء بعده بما رمى هو نفسه من تقدم عليه من المؤرخين ..

* دكتور . . إذا كان هذا الاختلاف والذي يصل في بعضه الى التناقض في الأفكار ، هو من طبيعة جدل الفكر الانساني ، فهل سيؤدي ذلك إلى حركة تطوير التأليف التاريخي . . !

ـ بطبيعة الحال ، فان النقد سيستمر . تلك سُنّة . وأنت تسأل عن إيجابية ، أو آثار هذه الحركة ، أقول ان من اسبابها ومن ثم نتائجها :

أ ـ إنّ التاريخ من المادة الاجتهادية للانسان .

ب ـ إنّ الانسان ليس واحداً في اجتهاده ، بل هو مختلف في رأيه .

جـ ـ وان هذا الاختلاف مفيد في حدّ ذاته ، لانه يدفعه الى الريبة والشك . .

د ـ والشك هو الطريق الموصل الى البحث عن اليقين ، وهو يدفع على الاستفسار والسؤال .

هـ ـ وبطبيعة المنطق ، فان الاسئلة المتتالية عن الماهية هي مفتاح باب العلم .

مقارنة واستنتاج :

يذهب الدكتور جواد علي : هناك في كتب التاريخ العربية القديمة مانجده في كل كتب التواريخ الاخرى من يونانية وسريانية ولاتينية ، من مؤاخذات وهنات وتزوير ودسّ ، وقد أشار القدامى لى مواضع منه ، وفات عنهم البعض ، واقتضت ظروف سياسية هذا الوضع ، وللسياسة منطق خاص في قيم الحق وفي مفهوم الامانة في التاريخ والصدق في تدوين الخبر ، أي ما نسميه بالرواية . .

عيوب كتاب التاريخ في العقود الأخيرة . .

* تاريخ العالم يكتبه مجتهدون بنظريات تخضع لعوامل تاريخية هي من واقع الأمم ، هل تظهر أخطاء منهجية عضوية في كتابة هذا التاريخ . . ؟

ويعقب الدكتور جواد علي :

ـ الأخطاء في التاريخ هي أخطاء لا تتوقف على عصـر ، ولا تنحصر في حقبة من زمن معين . . فالتـاريخ هـو موضـوع له صلة بالعواطف وبهوى الناس ، وبالعقيدة وبالأديان ، وبالسياسة ، ولذلك تنظر الحكومات إليه نظرة خاصة .

* وما نوع هذه الحكومات هل هو تصرف ايديولوجي تقوم به هذه الحكومات . . ؟

ـ خذ عهد بسمارك (حكم بسمارك) ، كانت المانية في ذلك العهد تريد الوحدة ، لأنها مفككة ، غـير موحـدة ، وقد اتخـذ من المؤرخـين والتاريـخ أداة أولى للاشـادة بالـوحدة ، وكتـاب المـانيـة ومؤرخوها وعلى رأسهم (ترايجكة) وفيلسوفيها (فيشته ، ونتشـه) وغيرهم يدعون الى وحدة المانية قوية ، والى أمة جرمانية تأخذ مكانها الملائم لمجهودها وانتاجها في هذا العالم .

* هل كان بسمارك ينطلق من تصور خاص . . !

ـ نعم . . لقـد اعتبر (التـاريخ) أداة من أدوات : الثقـافـة الوطنية .

* وفي زمن هتلر اتخذ التاريخ شكلاً عرقياً . . !

ـ بالفعل . . لأنه تأثر بهذه الروح (القومية) في التاريخ ، فقد رأى ان الجرمان هم الشعب المختـار في هذا العـالم ، وان الشعوب

الآرية ، هي وحدها الشعوب الخلاقة في هذا الكون . . وكان متأثراً بآراء الافرنسي الكونت (كويت) . . . . وان اليونان هم أهل الحضارة الاولى ومن الآريين أخذ الساميون حضارتهم في العراق وفي بلاد الشام وفي مصر . . وهي وجهة نظر كيّفية لم يوافق عليها رجال التاريخ (الاكاديميون) . . فالتاريخ في هذه الحالة قد اسيء استخدامه بالطبع .

* لدينا اليوم فلسفات في تفسير التاريخ تختلف في وجهات نظرها ، عن تفسير رجال القرن التاسع عشر للتاريخ . . لكن أسالك ، هل التعددية هذه تستهدف (معنى التاريخ) أم الاجتهاد في حرية المعرفة . . !

ـ اعتقادي ، أن هذا الاختلاف نابع من (تفسير معنى التاريخ) ، فالتاريخ في حد ذاته هو وصف لفعل مضى وانقضى واستخرج من الوثائق ، والوثائق هي مادة التاريخ ، وعليه تكون قوة حجة المؤرخ أو ضعفةفي وصف حادث ما ، مستمدة من الوثيقة .

*** ويطرح الدكتور جواد علي ، الاسئلة بصيغة الأجوبة ، عن غائية التاريخ ، والعناية به ويقول :**

١ ـ في معرفة مسيرة البشرية :

هل لمعرفة هذه المسيرة نحو الخير أم نحو الشر ، باعتبار

التاريخ : (حاسبة الكترونية) تقدم لك حساب الانسانية ، أو حساب زماننا هذا على الأقل .

٢ ـ في قوانين التطور :

هل هو تطور حسب نواميس الطبيعة ، يلاحظها الانسان فيسجله ، فليس للانسان عمل في قوانين هذا التطور ، أم تقدم نحو الامام نحو عالم أفضل تخدم فيه الاختراعات الجديدة سيدها الانسان ، وتخوفه في الوقت نفسه من الاساءة في استخدامها ، وتحذره من تفجيرها ، ففي تفجيرها دمار لما صنعه الانسان في مسيرته هذه .

٣ ـ في عالم الصراع :

هل هو مسيرة للانسانية تسير به من عالم ضعف إلى عالم أقوى ، يتساوى فيه القوي مع الضعيف ، عالم يخلو من جنون التسلح والحماقات ، يقضي الانسان فيه حياته بهناء ثم يموت ، أم أن الانسانية هي هي لاتتبدل ولا تتغير من حيث الطبع ، انما تتبدل من حيث التعامل واظهار اللطف !

تجربتي في كتابة التاريخ

ـ.. وفي جلسة اخرى من هذا الحوار ، مع الدكتور جواد علي ، بحثت في منهجه ، قلت أنت استعرضت الكتب والمناهج والأساليب ، ولم تقل لي أين منهجك ، فجعل يسرد لي ملامح تجربته

في كتابة التاريخ :

ـ . . . أخذت منهجي في تدوين ما كتبت في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وفي تاريخ العرب في الاسلام ، من رأيي الذي توصلت إليه ، من خلال مراجعتي لما كتبه العلماء والسياح عن ايام جزيرة العرب قبل الاسلام ، عن نتائج بحوثهم واكتشافهم فيها ، وما نقلوه من صور نقشها اهل الجزيرة قبل ايام التاريخ اي قبل الخمسة أو الستة آلاف سنة قبل الميلاد ، وخلاصته أن قوماً خلدوا لهم وجوداً قبل أن يُعرف القلم ، وتركوا لهم آثار سكن عند مواضع الماء وفي الكهوف ، وكانت لهم صلات مع الأقوام المجاورة لهم ، وكان لديهم قلم خاص بهم ، ظهر حين اكتشف الانسان الكتابة ، إن قوماً هذا حالهم لايمكن ان يصدق ما رواه أهل الاخبار عنهم، وما يرويه بعض الناس حتى هذا اليوم عنهم، من أنهم كانوا جهلة وفي عزلة عن العالم، وانهم لم يظهروا في التاريخ إلّا بظهور الاسلام، ظانين ان القول بخلافه هو غض من شأن الاسلام . فما معنى هذه الاهمية التي نقيمها للاسلام ، ان كل عرب ماقبل الاسلام على معرفة وكتابة ، واصحاب قلم ودول وحضارة ! وهو كلام لايقبل به الاسلام نفسه ، ولا يرضى به ، وما كانت الجاهلية التي نسبها القرآن الكريم لعرب ماقبل الاسلام جاهلية جهل بالكتابة والقراءة والدين ، وإنما هي

جاهلية عنجهية وسفاهة بدت ممن قابل الاسلام بالسخرية والازدراء بدلاً من مجادلته بالتي هي أحسن . .

وقد أدرك أحد الأعراب ، على اميّته هذه الملاحظة حين سأل أحد المستعربين (المستشرقين) عمّا ينقشه ، فقال له المستعرب : هذه كتابات كتبها بدو قبلكم وقبل الاسلام بزمان طويل ، وان الاحجار التي تراها مكتوبة في البادية هي من كتاباتهم ، عندئذ قال البدوي : يظهر أن اجدادنا كانوا خيراً منا ، يقرأون ويكتبون .

من هذه القصة وأمثالها ، توصلت الى ضرورة تدوين تاريخي بالرجوع إلى كتابات العرب الأولين ، لأنها وثائق ، والوثيقة هي المادة التي تلم بالتاريخ .

وقلت للدكتور جواد علي ، وما المؤرخ المعاصر ! قال وكرر قوله في السابق :

ـ يجب أن يكون وصافاً عالماً عادلاً يحكم بالعدل والانصاف ، ومعنى هذا ، أن ينظر الى منشأ الروايات واتجاه رواتها والزمن الذي عاش فيه صاحب الرواية وناقلها . . وأن يشخص كل جوانب التاريخ ، فلا يقتصر على التمجيد والمديح ولا يحاول جهد نفسه تسقط العثرات ومواطن الضعف . . وتدوين التاريخ للاجتهاد العلمي المخلص الذي يتوصل اليه وجدان المؤرخ عنه . .

مناهج تُدوّن التاريخ . .

ليس من شك ، ان المناهج المتبعة في تدوين التاريخ تختلف باختلاف وجهة نظر المؤرخ فيما يريد أن يكتب الأحداث ، لكن أي منهج بامكانه أن يكون اكثر وثوقاً في التاريخ . . ! وللدكتور جواد علي اجتهاد في ذلك :

ـ واقعاً أن المؤرخ المحترف ، يعرف كيف يستخرج من الوثائق التي اعتمد عليها مادته ، والوثيقة كما ذكرت ، هي مادة التاريخ ، بل هي التاريخ الذي مضى وانقضى ، صمت فيه الفاعل ، ولم يعد يتمكن من النطق ، بما وقع وحدث ، ليحاكم على مايقول من صدق أو كذب ، وفقاً للوثائق التي تتحدث عنه ، ثم ان المؤرخ يفسر التاريخ ، على وفق مدرسته ، وعلى وفق فلسفته في التاريخ ، فتاريخ يجعل التاريخ سجلاً يسجل أوامر الله في مسير الانسانية وفي مسير هذا الكون ، وتاريخ يرى ان الانسان يسير في حياته على وفق قوانين طبيعية تؤثر فيه ، أو على وفق قوانين مادية ، أو حرب بين الطبقات ، أو عوامل اقتصادية ، أو عوامل صوفية مثل صوفية (ميشليه) وغير ذلك من الآراء التي تسير الانسانية نحوه ، نحو الأفضل ، أو نحو الأسوأ ، نحو رقي على هذه الأرض ، أو نحو هبوط إلى جحيم يعم هذا الكون في رأي المتشائمين أمثال (شوبنهاور) أو (شبنكلر) وأضرابهما .

الرواية والراوية وموقف المؤرخ منهما .

* في التاريخ قد يكون هناك صنفان من المؤرخين يتحكم فيهما الاجتهاد الخاص والعام ، ماهي الأحكام في كتابة التاريخ . . ؟

- إن الطريقة السائدة بين المؤرخين بصورة عامة ، هي التي تقوم على جمع المقتطفات في أي صورة من صورها ، واستنباط مافيها من مادة تاريخية ، ويدخل في هذه المصادر مصادر غير مكتوبة من دون شك . ثم يدرس المؤرخ هذه المقتطفات ويستنتج منها ما يصل اجتهاده في دراسة الرواية ، اي الوثيقة .

وهناك فريق آخر من المؤرخين يرى أن التاريخ العلمي لايحصل عليه من نص الوثيقة ، وانما من هذا النص ومن المعاني الكامنة وراءه ، وعلى المؤرخ أن يسأل نفسه : (مامعنى هذه العبارة !) (وما هو المعنى الذي قصد إليه واضع هذه العبارة حين صاغها على هذه الصورة !) ، وهل يستنتج من الفقرات الواردة في الرواية شيئاً ، ثم هل يعقل ويقبل ماجاء في الوثيقة ، ويحكم عليها بموجب ماعنده من تجارب وخبرات سابقة وان خالفت ماجاء في نص الرواية ! فلرأي المؤرخ إذن قيمة كبيرة في فهم التاريخ ، ولكن اقحام الرأي الشخصي في الوثيقة يخرجها

في رأي المؤرخين المتمسكين بالنص عن طابع الأصالة ، ويجعل الرأي للمؤرخ مكانةفي اصدار أحكام التاريخ ، ويخرجها عن العلمية في التاريخ التي تنادي بها الفئة الثانية من المؤرخين العلميين ، ويكون التاريخ عندئذ تاريخ رأي واجتهاد لا تأريخاً أصيلاً مستنبطاً من أدلة وبراهين .

* تشخيصك للمؤرخين العرب . . من هم . . !

- اذا كنت تقصد : اشهر المؤرخين ، الذين كتبوا في التاريخ ، فهم : اليعقوبي والطبري والمسعودي وابن الاثير وابن خلدون ، وعدد آخر من المؤرخين ، والعرب هم في الدرجة الاولى من درجات سلم كتابة التاريخ ، فلا يسبقهم في هذا الحقل أحد .

. . وفيما مضى ، والتاريخ بعيد ، دار نقاش بيني وبين الدكتور جواد علي حول بعض المؤرخين الذين يفصلون (تاريخ العرب قبل الاسلام عن تاريخ الحركة الاسلامية) ، قلت له كيف تنظر الى هذا الموضوع !

- لايجوز هنا الفصل ، فهو تاريخ واحد ، لأن الاسلام صفحة من صفحات تاريخ العرب ، وتتمة له وجزء منه ، وقد عاش الرسول الى يوم المبعث فيه . . ولفهم الاسلام وسبب

الدعوة لابد من دراسة جذور الوضع في جزيرة العرب وفي خارجها ، حتى يمكننا معرفة فلسفة الدعوة التي جاءت بها ، والا كان فهم المؤرخ لتاريخ الاسلام فهماً مسطحاً غير علمي . .

المحظور من كتابة التأريخ . . !

* . . ما الذي نكتبه وما الذي لانكتبه في التاريخ في كل الازمنة والمقامات . ! يعطي الدكتور جواد علي ، رأياً (وسطاً) فيما يذهب اليه :

- المحظور او المحذور في كتابة التاريخ ، هو النواحي المثيرة للعواطف عند الانسان ، والنواحي المثيرة للبغضاء بين أبناء المجتمع او بين الانسانية ، او التي فيها تهجم على نظم اخلاقية قائمة ، او على اديان معترف بها ، او التي تتحدث عن الجنس بشكل يقصد منه الاثارة واشاعة الخروج على الآداب او التي تثير الكراهية بين الشعوب ، فقد كان لكتب التاريخ التي الفت في المانيا وفي فرنسا عن علاقات الشعبين بعضهما ببعض في القرن التاسع عشر ، دور كبير في اثارة البغضاء والحقد بين الشعبين المتجاورين .

* برأيك . . على أي أساس تتوقف درجات الاثارة . . ؟

- انفتاح او تزمت المجتمع هو الأساس ، ثم على مدى التحرش الوارد في المدونات .

ونظراً الى مافي المجتمعات المتزمتة من حساسية تجاه القضايا

التاريخية التي تثير العاطفة ، لمساسها الشديد بها . . لذلك تمنع الحكومات نشرها ، خشية الفتنة واثارة بعض المغرضين لها ، لاشعال نيرانها بين الناس .

* * *

. . وكنت قد حدثت الدكتور جواد علي ، قبل زمن انقضى ، عن قضية اثارة المجتمع المصري بوسائل كتابة التاريخ في زمن محمد عبده ، وما يجابه المؤرخ في الوطن العربي من صعوبات قال مستدركاً حديثاً سبق هذا الحديث :

ـ ومع هذا ، فقد خفت حدة هذه العواطف كثيراً بعامل التهذيب والتثقيف وتطور البيئة والزمن ، فقد حمل الرأي العام في مصر على الشيخ محمد عبده ، وكفره بعضهم ، لأنه تحدث عن امور كانت شائكة بالنسبة لذلك الوقت ، اما اليوم فلا يعبأ بها اي أحد . وحوكم الدكتور طه حسين لشطحات ظهرت منه ، وحمل عليه علماء ذلك الوقت حملات عنيفة ، اما اليوم ونحن نقرأ كتبه فلا نجد فيها شيئاً يستحق تلك المحاكمة ، وذلك بسبب تغير العقلية وتطورها .

متى تعتبر الكتابات : وثيقة . . !

* كيف نعتبر هذه الكتابة او تلك وثيقة ! ومتى تصبح تاريخاً . . ؟

ـ للعلماء في ذلك دراسات في التمييز بين الكتابات ، وفي تقرير

ازمنتها ، وهل تعد وثيقة ، أم لا ! وذلك بالاستناد الى شكل الحروف وطراز نقشها على الحجارة . وتعتبر العالمة الفرنسية (جاكلين بيرين) احدى المتخصصات في دراسة علم الخطوط (Paliagrabhie) وهناك عدد غيرها من العلماء ممن تخصص بتشخيص عمر الخط المسند ، وذلك بدراسة شكل الخط ، فالخط الحلزوني هو خط قديم أقدم عهداً من الخط الذي تقرأ فيه السطور من اليمين نحو اليسار ، والخطوط المهندسة والمدونة بعناية هي أقدم عهداً من الخطوط (المخربشة) التي دونها اصحابها على الاحجار ، مثل الكتابات المعروفة اصطلاحاً بالكتابات « التمودية » . .

* . . لكن متى نعتبر الوثيقة « وثيقة » . . ؟

* لقد درس العلماء المحدثون هذه الناحية ، وذلك عن طريق دراسة حبر الوثيقة ، ونوع ورقها ، وخط صاحبها ، واسلوبها ، بعرضها على من له علم بالكتابات .

* هل حدث ان زورت وثائق تأريخية . . ؟

ـ هناك الكثير ، وحتى لا نذهب بعيداً ، فقد نشرت قبل فترة مذكرات في احدى الجرائد ، على انها مذكرات (هتلر) ، ثم تبين بعد تدقيق وتحقيق ، انها مزورة ، وان شخصاً قد لفقها بدقة ، ولكن الامر لم يفت على المتبحرين في الموضوع .

* في التاريخ العربي القديم ما فعل التزوير . . ؟

ـ امثلة عديدة . . لقد زورت كتب على لسان الرسول ، وعلى السنة الخلفاء ، الا ان العلماء ادركوا مافيها من تزوير ، بدراستها ومطابقتها مع ماهو معروف في كتب التاريخ .

* كم نوع للوثيقة في التاريخ العربي . . ؟

ـ في العلم : الوثيقة هي مادة التأريخ ، ولا تاريخ بدون وثيقة .

اما انواعها فهي :

١ ـ الوثيقة الشفوية .

٢ ـ وثيقة كتابة .

٣ ـ الوثيقة الحجرية .

٤ ـ الوثيقة الحجرية المكتوبة . . (الى آخر ذلك . .)

ويعمد المؤرخ الى الوثيقة ليستنبط منها مايريد الحصول عليه من التاريخ ، ومن الاحجار الصوانية وغيرها ، ومن الصور المحفورة على الصخور استخرج المؤرخون ، الفرع الجديد من فروع التاريخ ، ألا وهو تاريخ ماقبل التاريخ . والاحجار والصور والعظام ، وكسر الخزف ، تكوّن وثائق هذا التاريخ . . (. . وفي تعريف الوثيقة : تقابل لفظة « الوثيقة » لفظة (document) في الانكليزية ، المشتقة من أصل لاتيني هو (dacere) .

* * *

. . عن تطور مفهوم الوثيقة في عصرنا ، ومشكلات المؤرخ أمام الوثيقة ، كان الموضوع الذي تحدث به الدكتور جواد علي منذ تسعة اعوام وكنت أسجله في ذلك الوقت وثائقياً ، قال : ـ

ـ في الوقت الحاضر ، كثرت الوثائق وتنوعت ، بتقدم العلم والتقنية ووسائل الاعلام والرأي وتطور العقل ، فمن وثائق هذا اليوم ، الافلام السينمائية ومحاضر جلسات الدولة او المجالس النيابية او الشعبية او النقابية والتقارير ، ولا سيما التقارير التي تنطوي على أمور تاريخية مهمة . . ويدخل اليوم في باب الوثائق : المذكرات الشخصية والرسائل ومحاضر المحاكمات الرسمية او المنشور في الصحافة ، والمقابلات الشخصية ، وتقارير المراسلين المدنيين .

طبيعة المؤرخ

* للمؤرخ طبيعة ، فهل وجدتها مختلفة بين القديم والجديد . . ؟

ـ المؤرخ ، مثل اي انسان آخر . . ابن زمانه اولاً ، كما هو ابن نفسه ، اي صورة نفسه ، والجبلة التي جبل بها من (جينات) ، أي موروثات ولدت معه بالولادة ، في بيئة بيته وفي بيئة محيطه ، وكل هذه العوامل تؤثر عليه ، من حيث انه انسان ، تؤثر عليه بقدر ، ولهذا نجد المؤرخ القديم ، متأثراً بزمانه وبمكانه ، فينسب السببية في التاريخ الى فعل (الآلهة) ، متجاهلاً دور الفاعل الاصلي في التاريخ ، وهو

الانسان ، مع ان الانسان هو الصانع للتاريخ ، وهو المخلد له ، وعليه يقع فعل الطبيعة والجو .

والمؤرخ الحديث هو مثل المؤرخ القديم ، متأثر بما ذكرت وبالظروف التي طرأت على المجتمع الجديد ، فيكتب تاريخه بروح هذا الجديد الذي يكون قديماً بعده ، حيث يحل جديد آخر محله . .

* * *

* . . وكنت اناقش الدكتور جواد علي والعام عام السبعينات ، عن المؤرخ ابن عصره وكيف انه يهمل في كتاباته ظروف المجتمع الحقيقية بتبريرات واهية ، وصار الحديث بيننا عن جرجي زيدان وأحمد أمين من العرب ، و (فون كريمر) عن المستعربين فأعطى الانطباع التالي : -

- تصوري ان الدراسات التي كتبها هؤلاء ، اعتبرها : الاولى من عتبات سلم هذا التاريخ ، وانها لم تشمل الا ماظهر من هذا الوجه ، وقد خفي عن هؤلاء المؤلفين شيء كثير . . فهذه الدراسات لم تتطرق الى حياة المجتمعات ولا الى القيادات ولا الى الاحتكاك بالرعية بعضهم ببعض والى حياة من اسموهم بسواد الناس من اصحاب الصنعة وبقية الاصناف ولا الى النواحي الاقتصادية والاجتماعية بصورة عامة ولا الى النواحي الفلسفية التي تكاد تكون مجهولة ، مع انها احدثت اثراً كبيراً في بنية المجتمع ، بدليل ما وقع من جدل . .

والاشارات العابـرة اليها هي دليـل في حد ذاتـه على مـا كان لهـذه الاتجاهات الفكرية من أثر في الناس .

المذكرات السياسية

* كتب العديد من الساسة مذكراتهم السياسية ، مـا نوعهـا وثائقياً ، وهل هي تقليد شرقي ام غربي . . ؟

ـ المذكرات السياسية هي وثائق من وثائق التاريخ ، لاشك في ذلك ولا شبهة مهما كانت طبيعتها : من صدق او تهويل ومبالغة او تمجيد او قدح وخروج عن الواقع . فلقراء المـذكرات رجـال ليسوا بمغفلين ، يعرفون صاحبها ويظهرون اخطاءها ، والمؤرخ الحصيف ، الثقة في التاريخ الذي يتناول المذكرة بالبحث ووسائل النقد قادر على تقييم هذه المذكرات وابداء رأي فيها ، وقد تمضي المذكرة ، فتكون مرجعاً ، مع وجود عيوب فيها لمرور زمن عليها ، ولعدم اهتمام احد بها يوم ظهورها ، او لأن احداً لم يدون رأيه فيها ، مع علمه بوجود نواقص بها ، لصداقة او لعدم رغبة في الكتابة ، او دخول في جدل مع صاحب المذكرة يسبب ازعاجاً له . .

* لماذا قام فن (المذكرات) . . ؟

تقوم المذكرات السياسية لسببين :

١ ـ في بعضها نسبة اعمال الى صاحبها ، ومحاولة دفع شبهـة

وجهت لـه ، واظهار صـاحبها بمـظهـر الشخص المؤثـر ، صـاحب الكلمة .

٢ ـ وتكشف البقية عن امور صحيحة تصحح ماهو معروف او خافٍ عن حادث تاريخي . . وتتوقف المذكرات السياسية على درجة براعة وثقافة اصحابها وعلى وجدانهم وشعورهم بالمسؤولية . .

* من مِنْ العرب من اهتم بهذا (الفن) ؟

ـ في القطر المصري : الـدكتور حسين هيكل وبـطرس غالي باشا ، هما اقدم من اهتم بكتابة المذكرات وشعر بضرورتها . . وفي العراق ، كتب توفيق السويدي وناجي شوكت وعلي جودة الايوبي وطه الهاشمي وعبد العزيز القصاب والشيخ مهدي كبة ، وغيرهم ممن كتب عنهم وعن نوعية مذكراتهم وناقشها ، اساتذتنا في التاريخ الحديث ، وهي لا تزال مع ذلك في حاجة الى دراسة اوسع والى قالب افتح في الكتابة عنها . . وهكذا وضع بعض الممثلين السياسيين من الأجانب الذين اشتغلوا في العراق ، مذكرات عن ايامهم في هذه البلاد او في الوطن العربي ، ويمكن ادراك ميولهم من مطالعتنا لهذه المذكرات . .

وكتابة المذكرات بـاب من ابواب الأدب ، يحتاج الى موهبـة ومهارة ، شأنـه في ذلك شـأن كتابـة القصص ، من حيث الابداع والاتقان في تصوير الأشياء ، والتعبير عن الشعور بأدق التعابير وأخير الالفاظ . . والمذكرات أقدم عهداً في الغرب منه عندنا في الشرق ، كما

انه بحكم قدمه وكثرة ممارسة الناس عندهم لمطالعة المذكرات ، اكثر اتقاناً وأروج سوقاً ، واكثر تعرضاً للتحليل منه عندنا في هذا اليوم . .

العراق في التاريخ

وآخر الكتب التي صدرت في التاريخ ، كان للدكتور جواد علي رأي فيها ، ومن هذه الكتب (العراق في التاريخ) الذي صدر عن وزارة الثقافة والاعلام . . يقول : (العراق في التاريخ) كتاب عام ، لا يمكن ان يتوخى التفاصيل ولا الجزئيات ولا الاجتهادات . . ولا واجب عليه ، في حسم ونقد تلك الاخطاء التي قادت الى بعض الاخطاء في تفسير حركة المجتمع العراقي التاريخية .

وهو ضروري في هذه المرحلة ، لأنه يقدم لنا صورة عامة عن العراق للقارىء عن تطور الحياة في العراق ، وعن الدول التي اعقبت دولاً ، بصورة لا يمكن الحصول عليها الا في كتاب عام جامع لهذا التاريخ .

(ومن خلال ما ظهر في الكتاب) من سمات معينة وراء انسانية العراقي على امتداد التاريخ ، اقول ان لكل امة خصائص ومميزات تمتاز بها عن غيرها طبعت بطابع الارض والجو والاختلاط بالغرباء وبالوراثة (الجينات) التي تؤثر في الافراد والأمم ، فطابع الجفاف السائد على معظم ارضه واختلاف درجات الحرارة اختلافاً كبيراً بين

الليل والنهار ، وبين الشتاء والصيف ، كل ذلك اثر على طبائع اهل العراق فجعلهم : اشداء ، محاربين ، صامدين .

* * *

وطريقة التدوين الجماعي في التاريخ ، لها مزاياها في التواريخ العامة للعالم . . ولهذا فأن ما كتب اخذ فيه بمبدأ العموم والشمول في العرض مع مراعاة الايجاز . . وقد وضع وفقاً لنسلسل حوادث التاريخ لشخص مثقف عام يريد الحصول على تاريخ عام عن بلاده . . . ان الكتاب هو اول تجربة من نوعها جرت في العراق ، وقد حاول كتابه جهدهم اخراجه بأحسن مايمكن ، واستمعوا الى وجوه من النقد فأخذوا بها ، وما اخرجوه يكون خير مايمكن في هذا الوقت .

وللدكتور جواد علي ملاحظات على الكتاب ، واذا قدر ان يطبع مرة اخرى ، فلابد من اجراء صقل او اضافات عليه فقد لاحظ :

١ ـ ان القسم الحضاري لم يشر الى اثر القلم العراقي الذي كان في الحيرة وفي الانبار وفي عين تمر ، على القلم الذي كان بمكة منذ ظهور الاسلام ، واهل الاخبار يذكرون ذلك ، ولهم روايات في منشأ هذا القلم ، وانه كان من العراق وان فلاناً جاء به اليها .

٢ ـ كما اني خرجت من الكتاب وكأن العرب من طراء الفتح الاسلامي في الغالب ، مع آن العرب كانوا في منطقة « بيت عرباية » ـ باعربايا ـ قبل الميلاد ، وبهم قيل لها أرض العرب ، وبيت

العرب ، وكانت جموع امارة « حدياب » من العرب ، كما كان العرب قبل الميلاد في بلاد ما بين النهرين ، وكانت مواطن اياد في هذه الناحية .

٣ ـ استعمل الكتاب لفظة « الجزرية » في معنى : « سامية » ولا ارى داعيا لهذا التغيير بحجة ان اليهود استغلوها لمصلحتهم ، واللفظة مصطلح عند المستعربين وعند غيرهم من الواقفين على التاريخ . واذا كان لابد من ايجاد مصطلح جديد فأشير الى لفظة « العروبية » التي ذكرها ابن خلدون في تاريخه ، حيث يقول : « وكانت ثقيف جيرانهم بالطائف يساجلونهم في مذاهب العروبية ، وينازعونهم في الشرف » مع ذلك فأني لااريد تغيير مصطلح السامية في الوقت الحاضر حتى نصل الى مصطلح احسن منه ، او مساو له على الأقل .

٤ ـ ورأيت لفظة « شوش » و « الشوش » في الكتاب وهي صحيحة بالنسبة الى لغة الفرس فهي عندهم « شوش » « شوشان » و « شوشستان » اما العرب فيقولون لها « سوس » و « السوس » فكان من اللازم وضعها مع « شوش » باعتبار ان اللسان الذي نكتب به لسان عربي قد حدد العرب نطقها على ما ذكرت .

٥ ـ كذلك وجدت فيه لفظة : « ادبيانة » وهي امارة « حدياب » في السريانية وفي الكتب العربية ، و « ادبيانه » باليونانية ،

فمن الافضل لو كتبت « حدياب » مع اللفظة .

٦ ـ وهناك بعض هفوات مطبعية او نسيان كلمة ، مثل ما جاء في صفحة « ٢٦١ » من قوله : « الا ان د . جواد علي وكان المنذر رجلا قويا حارب الروم » والظاهر ان كلمة قد سقطت عفوا في الطبع ، وهي « يقول » ، فصارت الجملة بعيدة عن الفهم .

أنا . . في فلسفتي . . !

وكان يجلس في مرضه ، حتى سألته عن رحلته الاخيرة في الحياة بسؤال صعب (من أنت !) فأجاب عنه بسهولة « أنا . . أنا ! » . . قال :

اجد ان اصعب مايوجه الى شخص من سؤال هو من انت ! فأنا انا ، اعرف نفسي ، واذا نظرت الى وجهي في المرآة عرفتها ، ولكن : هل انا ، انا حقا . ان علمي هو علمي وعلم غيري اي علم محيطي ثم الاسرار الخفية المهيمنة علي من جينات . ومن وراثة . ومن قوة سرية دافعة يعبر عنها بالشيطان . تدفع الانسان على القيام باعمال فيعملها ثم اذا عاد الى نفسه ندم او فرح مما فعله بهذا الايحاء الذي يقع له من حيث لا يدري . ومن هنا فأنا انا ، من حيث الجسم والحديث ، ولكني جاهل بطبعي . ويدفعني جهلي هذا عن البحث عن المجهول فتولد المعرفة ، فالمعرفة : هي حاصل الجهل :

وصرت اشعر الان ، ان الانسان كلما تقدم ومهما عاش على سطح الارض ، فأنه لا يصل الى معرفة الحقيقة ، وإن البحث عن الحقيقة يدفعه الى البحث عنها وان جهله يحمله على البحث فيخلق خلقا ، ويبتكر ابتكاراً ، ويولد حياة من بذرة حياة في الانا ويصل الى القمر والى كواكب اخرى ومع ذلك ، فهو جاهل ، وسيعيش ويموت والجهل مهيمن عليه . .

اما ماأريد ان اقوله فاني قد جئت ولست مختارا في مجيئي وساموت ولست ادري متى ، ولِمَ اموت ، فعلي قضاء أيام حياتي بعمل أعمله لنفسي ولغيري وان احترم نفسي ، واحترم غيري احترامي لنفسي ، وان اعمل لخير الناس عامة ، والحياة قصيرة وهي لاشيء بالنسبة لحياة هذا الكون !

وان على البشرية بحكم كونها سيدة الحيوانات ان تؤدي سيادتها على الوجه الحق ، بالتعمير والاصلاح لنفسها ولغيرها من الحيوان والنبات والجماد وان تحول العنجهيات الى عمل الخير والاحساس وليس الى الهدم والتفرقة !

وفي هذا العمر اريد الانصراف الى جمع ماتكون في فكري من آراء عن التاريخ ونشره بعنوان : التاريخ لغير المؤرخين ومعنى هذا ، انه تبسيط لمفهوم التاريخ هل هو علم ، او معرفة او ادب او فن ،

والنظريات السائدة عن السببية في التاريخ والقوانين في التاريخ وعن فلسفته وتفسيره لهذا الوجود ، ثم اني مشتغل الان في اعادة النظر في مسودات معجم الفاظ كتابة المسند لاعداده الى النشر على صورة اجزائه ، وكذلك في مسودات « تاريخ العرب قبل الاسلام » وكتاب « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » .

ومن تجربتي اقترح في التأليف ان يكون رأيا اصيلا ، فيه جدة واصالة مستندة على وثائق وموارد ، سواء كان هذا التأليف في العلوم ام في الآداب ام في الفنون ومعنى هذا ، ان يكون المؤلف حاصل عصير دماغ ، وخلاصة تجربة وتفكير ، وهواية من نفس المؤلف ، ليكون الحاصل ، من القلب الى القلب !

واقترح من اجل خلق تأليف عندنا بتهيئة الاجواء المشجعة على التأليف ، وبحماية المؤلف من بعض الناشرين الذين يسرقون حق المؤلف ويطبعون نتاج فكره بغير اذن وحق ، مع ان المؤلف مسكين لايربح من مؤلفه الا الاسم في الغالب وقد يخسر الكتاب !

* *

الى هنا تنتهي رحلتي مع العلامة جواد علي ، بدأتها محباً له ولعمله ، وختمتها محباً لهذه الارادة الصلبة التي وقفت في جلالها ، موقف المتأني ، الصبور ، الذي يبحث عن المزيد من حوار الافكار

والعقل والتجربة ، كان هو ايضا متأنياً يحلم بالصبر ، وشدة الصبر فيه طبع ، وطبعه الحلم دائما ، وتوق الحلم الى هذا النفيس العلمي يثري فينا ، وجدان العراق ، علّمنا العراق ان أعلامه في يقظته وانه ساع الى هذا التوق ، انه مشدود الى هذا الابد ، ولولا هذا التوق لما ازدهر العلم في المستنصرية ، ولما استظل النحو في الكوفة ، ولما انفجر الخليل في البصرة ، اقول ام اعتذر لهذا النفيس جواد علي ، في اختزالي لافكاره ، وحفظي لبعض احلامه الى يوم يفرح فيه ، في زمن موعود ، فانا أتعبته وارهقت فيه السمع والعين والذاكرة ، لكنني مطمئن الى انني آنسته بالماضي ، ووترّت فيه وتر التاريخ ، بل وتر (ام مهدي) التي قرأت له الكف امام امه في زمن العثمانيين وقالت : ان الابن سيبعث كاتبا ، فعذرٌ الى مرض يثقل الحياة ، وعذر الى يدً تقصر فيها النذور ، نمْ مبتهجا في ألق الرشيد !

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع . م.

سرمد حاتم شكر السامرائي

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

تعنون جميع المراسلات
لرئيس مجلس ادارة الشؤون الثقافية العامة
العنوان:
العراق - بغداد - اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الغلاف: رياض عبد الكريم

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٧

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

السعر: سبعمائة وخمسون فلساً